

الجدال

عناصر الموضوع

٨	مفهوم الجدال
١٠	الجدال في الاستعمال القرآني
١١	الألفاظ ذات الصلة
١٦	الجدال المحمود في القرآن الكريم
٣١	الجدال المذموم في القرآن الكريم
٥١	منافع الجدال ومضاره في القرآن

مفهوم الجدال

أولاً: المعنى اللغوي:

إن المتبع لمعاني كلمة (جدل) ومشتقاتها في اللغة العربية يجدها تدور حول المعاني السبعة التالية:

١. استحكام الشيء وانتظامه؛ ومنه: جدلت البناء: أحكمته، ودرع مجدولة: المحكمة العمل.
٢. امتداد الخصومة، واللدد فيها، مع القدرة عليها.
٣. مراجعة الكلام.
٤. المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة.
٥. الصرعة والقوة والشدة، يقال: جدل الغلام يجدل جدولاً يعني اشتدّ، ومنه إسقاط الإنسان صاحبه على الجدالة، وهي الأرض الصلبة.
٦. الفتل الشديد؛ يقال: جدلت الحبل، أي: أحكمت فتله؛ فكأن المتجادلين يفتل كل واحد الآخر عن رأيه.
٧. الشاكلة والحال والطريقة التي جدل عليها الإنسان، تقول: عمل على جدلته: أي شاكلته التي جدل عليها^(١).

ثانياً: المعنى الاصطلاحي:

عرف العلماء الجدال بعدة تعريفات، أهمها خمسة:

الأول: «المراء الذي يتعلق بإظهار المذاهب وتقريرها»^(٢).

الثاني: «التخاصم بما يشغل عن ظهور الحق ووضوح الصواب»^(٣).

الثالث: هو القياس المؤلف من المشهورات والمسلمات لإلزام الخصم غالباً، وإظهار

صحة المذهب وسلامته^(٤).

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١ / ٣٨٧-٣٨٨، المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٧ / ٣٢٢-٣٢٦، لسان العرب، ابن منظور ١١ / ١٠٣، تاج العروس، الزبيدي ٢٨ / ١٩٣-١٩٧، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١ / ١١١.

(٢) انظر: التعريفات، الجرجاني، ص ٧٨، التوقيف، المناوي ص ٢٣٣.

(٣) التوقيف، المناوي ص ٢٣٤.

(٤) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١ / ١١، التعريفات، للشريف الجرجاني، ص ٧٨.

الرابع: «مقابلة الحجة بالحجة؛ فإن كان في الوقوف على الحق كان محمودًا، وإن كان في مدافعة الحق كان مذمومًا»^(١).

الخامس: «إظهار المتنازعين مقتضى نظرتهما على التدافع والتنافي بالعبارة، أو ما يقوم مقامها من الإشارة والدلالة»^(٢).

وخلاصة التعريفات السابقة: أن الجدال: مقابلة المتنازعين الحجة بالحجة عند التدافع والتخاصم؛ لإلزام الخصم غالبًا، وتقرير المذهب، سواء أكان حقًا أم باطلاً.

وعند تأمل معاني الجدال لغةً واصطلاحًا يظهر الترابط بينهما في النقاط الآتية:

✿ الجدال استحكام الشيء وانتظامه؛ والمتجادلين يحكم كل منهما حجته، وينظم أفكاره؛ ليقنع الخصم أو يفحمه.

✿ الجدال امتداد الخصومة، واللدد فيها؛ والجدال يقوم على التدافع والتخاصم بين المتجادلين، وقد يترتب عليه امتداد الخصومة، وحصول القطيعة.

✿ الجدال مراجعة الكلام؛ فالمتجادلان يحرص كل منهما على مراجعة كلامه وتكراره؛ ليتضح مقصوده، ويفهم مراده.

✿ الجدال منازعة ومفاوضة؛ وكلا المتجادلين يفاوض خصمه وينازعه الحجة؛ لعله يظفر منه بإقرار أو إفحام.

✿ الجدال الصرعة والقوة والشدة؛ وكذلك المتجادلين يحرص كل منهما على عرض حججه بأسلوب قوي؛ ليصرع بها حجج خصمه وأدلته.

✿ الجدال الفتل الشديد؛ وكذلك المتجادلين يسعى كل منهما لفتل الآخر عن رأيه.

✿ الشاكلة والحال والطريقة؛ والجدال طبيعة تسري في الإنسان، وطريقة يسعى من خلالها لتحقيق مراده، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ

الْإِنْسَانُ أَكْثَرَشَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤].

(١) تفسير غريب ما في الصحيحين، الأزدي ص ٥٣.

(٢) الكافية في الجدال، الجويني، ص ٢١.

الجدال في الاستعمال القرآني

وردت مادة (جدل) في القرآن الكريم (٢٩) مرة^(١).
والصيغ التي وردت هي:

المثال	عدد المرات	الصيغة
﴿ هَتَأْتُهُمْ هَتُوءًا جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [النساء: ١٠٩]	٤	الفعل الماضي
﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ مُّجَدِّلٌ عَنْ نَفْسِهَا ﴾ [النحل: ١١١]	٢٠	الفعل المضارع
﴿ وَجَدَلْتَهُمْ بِآيَاتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥]	١	فعل الأمر
﴿ فَلَارَفَّتْ وَلَا فُسُوقٌ وَلَا جِدَالٌ فِي الْحَجِّ ﴾ [البقرة: ١٩٧]	٤	المصدر

وجاءت لفظة الجدل في القرآن الكريم على ثلاثة أوجه^(٢):

الأول: الخصومة: ومنه قوله تعالى: ﴿ وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ ﴾ [غافر: ٥]، أي: خاصموا بالباطل.

الثاني: المراء: ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَا جِدَالٌ فِي الْحَجِّ ﴾ [البقرة: ١٩٧]، أي: ولا مراء في الحج.

الثالث: الدعاء: ومنه قوله تعالى: ﴿ وَجَدَلْتَهُمْ بِآيَاتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥]، أي: ادعهم بالتي هي أحسن.

(١) انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبدالباقي ص ١٦٥.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، مقاتل بن سليمان ص ١٣٨، الوجوه والنظائر، الداغاني ص ١٥٨-١٥٩.

الألفاظ ذات الصلة

١ المحاجة:

المحاجة لغةً:

الحجج: الغلبة بالحجة، يقال: حَجَّه يَحُجُّهُ حَجًّا، إذا غلبه على حجته، ومنه الحُجَّة بالضم: الدليل والبرهان، وقيل: ما دفع به الخصم، وإنما سميت حجةً لأنها تحجج، أي تقصد؛ لأنَّ القصد لها وإليها، وبها يقصد الحق المطلوب، وجمع الحجة حججٌ وحجاجٌ^(١).

المحاجة اصطلاحًا:

قدرة الفرد على توظيف ما يمتلكه من الأدلة والبراهين العقلانية الموضوعية في قضية خلافية؛ لإثبات دعواه، وإيضاح فكرته، مع تنفيذ حجج مخالفه، والوصول بهم إلى الاقتناع بهذه الفكرة، والإيمان بها، دون إلزامهم باتباعها، والسير عليها^(٢).

الصلة بين الجدال والمحاجة:

يمكن التفريق بين الجدال والمحاجة من خلال النقاط التالية:
يهدف الجدال غالبًا إلى إفحام الخصم، بينما تهدف المحاجة إلى الوصول إلى الحق والصواب.

يغلب على الجدال الأسلوب الانفعالي، والتعصب للرأي، بينما يغلب على المحاجة الأسلوب المنطقي الهادئ، وتتبع الصواب.

المحاجة أعم من الجدال؛ فالجدال يقوم على تقرير المذهب، سواء أكان حقًا أم باطلاً، بينما المحاجة تقوم على تقرير المذهب، وتحقيق الصواب.

الجدال غالبًا يترك أثرًا سلبيًا على العلاقة بين المتجادلين؛ لأنه يقوم على تسجيل النقاط السلبية على المخالفين، بخلاف المحاجة التي تعتمد على الإيجابية والتعاون؛ لاكتشاف الحقيقة^(٣).

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢ / ٢٩-٣٠، لسان العرب، ابن منظور ٢ / ٢٢٦، تاج العروس، الزبيدي ٥ / ٤٥٩-٤٦٤.

(٢) انظر: المحاجة طرق قياسها وأساليب تنميتها، طريف شوقي ص ٣، المجلد في القرآن الكريم، يوسف العساكر ص ٣٠.

(٣) انظر: المحاجة طرق قياسها وأساليب تنميتها، طريف شوقي، ص ٣، الحوار في القرآن الكريم، محمد حسين فضل الله ص ٣٢.

٢ المناظرة:

المناظرة لغةً:

المناظرة في اللغة مشتقة من المادة اللغوية (نظر)، ومن معانيها: تأمل الشيء بالعين المجردة، وتقليب البصيرة لإدراك الشيء ورؤيته، والتأمل والفحص، وقد يراد بالنظر المعرفة الحاصلة بعد الفحص، والطلب؛ يقال: انظر لي فلاناً أي: اطلبه، والمقابلة؛ والعرب تقول داري تنظر إلى دار فلان، ودورنا تناظر أي: تقابل، والإمهال، والترقب والتوقع، واللمحة السريعة^(١).

المناظرة اصطلاحاً:

المحاورة بين طرفين متضادين في الرأي، والقائمة على الأدلة المنطقية والبراهين والإحصائيات الدقيقة، يقصد كل منهما تصحيح قوله وإبطال قول الآخر بأدب رفيع، مع الرغبة في إظهار الحق، والراجع على المرجوح، وتحقيق الفائدة المبنية على المناصحة والحلم^(٢).

الصلة بين الجدل والمناظرة:

يمكن التفريق بين الجدل والمناظرة من خلال النقاط التالية:
يقوم الجدل على المخاصمة والشحناء، بينما المناظرة تقوم على التعاون والمناصحة. يهدف المجادل إلى إظهار النفس ورفض الغير، بينما المناظرة تهدف إلى إظهار الحق، وإفادة المناظر.

أدلة المجادل مبنية على الأهواء غالباً، بينما الأدلة في المناظرة مبنية على التحديد والدقة. إنّ الجدل لا يخلو من التجني على الأشخاص والتعدي على المحارم، بينما المناظرة ميزانها الأدب الرفيع والحكمة.

٣ الممارسة:

الممارسة لغةً:

الممارسة في اللغة مشتقة من المادة اللغوية (مري)، ويعني: المسح على الشيء؛ ومنه مراه مرياً، ومري الفرس مرياً: إذا جعل يمسح الأرض بيده أو رجله، ويأتي بمعنى الاستدراة؛

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٤٤٤، لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٢١٥، تاج العروس، الزبيدي ١٤/ ٢٤٥، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٩٣٢.

(٢) انظر: التعريفات، الجرجاني ص ٢٥٠، آداب البحث والمناظرة، محمد الأمين الشنقيطي ص ٤.

ومنه: الريح تمرى السحاب وتمتريه تستخرجه وتستدرّه، ومنه: الصلابه في الشيء، والشك، والجحود؛ يقال: مراه حقّه أي جحده، الجدل؛ ومنه: ماريت الرجل أماريه مرأء إذا جادلته^(١).

المماراة اصطلاحًا:

الطعن في كلام المخالف وإن كان ظاهر الحق، على سبيل الملاحاة والتدافع والمغالبة؛ لبيان عجزه وضعفه، ولإظهار مزية النفس ومكانتها، والتحقيق من شأن المخالف، دون الالتفات إلى الحق والصواب^(٢).

الصلة بين الجدل والمماراة:

إنّ المتأمل لمصطلحي الجدل والمماراة يجد بينهما فروقًا دقيقة، منها: المرء لا يكون إلّا اعتراضًا، بخلاف الجدل الذي يكون ابتداءً واعتراضًا. الجدل يكون محمودًا ومذمومًا، بخلاف المرء فلا يكون إلّا في الباطل؛ فهو مخاصمة في الحق بعد ظهوره.

يغلب على المرء إظهار حظ النفس مع تحقير الغير في المكانة والمعرفة، بينما نجد ذلك بحالة أقل في الجدل^(٣).

٤ المنازعة:

المنازعة لغةً:

المنازعة في اللغة مشتقة من المادة اللغوية (نزع)، وتأتي بمعنى الجذب؛ يقال: نزع القوس إذا جذبها، ومنه: نزع الإنسان إلى أهله، ومنه: تنازع القوم اختصموا، وبينهم نزاعة أي خصومة في حق، ومنه: قوة العزيمة في الرأي والهمة؛ يقال للرجل الجيد الرأي: إنّه لجيد المنزعة، ومنه القلع؛ يقال: نزعت الشيء من مكانه نزعًا إذا اقتلعت^(٤).

المنازعة اصطلاحًا:

المخاصمة والمخالفة القائمة على التنازع والتجاذب لنفي ما عند الآخر ومحوه، سواء

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٣١٤، لسان العرب، ابن منظور ١٥ / ٢٧٥-٢٧٨، تاج العروس، الزبيدي ٣٩ / ٥٢٢-٥٢٨.

(٢) انظر: الفائق في غريب الحديث والأثر، الزمخشري، ٢/ ٢٣٢، إحياء علوم الدين، الغزالي ٣ / ١١٥، التعريفات، الجرجاني، ص ٢٢١.

(٣) انظر: المصباح المنير، الفيومي ٢ / ٥٧٠، الفروق اللغوية، العسكري، ص ١٥٩.

(٤) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥ / ٣٣٢، لسان العرب، ابن منظور ٨ / ٣٤٩-٣٥١.

أكان حقًا أم باطلاً، والموصلة في الغالب إلى الفشل والانتكاس^(١).

الصلة بين الجدل والمنازعة:

إنّ المتأمل لمصطلحي الجدل والمنازعة يجد بينهما فروقاً دقيقة، منها:
إنّ غاية الجدل إفحام الخصم وإلزامه، بينما الغاية في المنازعة نفي الآخر وتحقيره وإظهار عجزه.

إنّ الجدل في بعض المواقف يقود إلى الرأي الصحيح، بينما المنازعة طريقها واحد هو الفشل والانتكاس.

الجدل يقوم على الأدلة والبراهين، بينما المنازعة تقوم على المخالفة ابتداءً؛ بدليل أو بغير دليل.

٥ المحاور:

المحاورة لغة:

المحاورة في اللغة مشتقة من المادة اللغوية (حور)، ومن معانيه: الرجوع عن الشيء وإلى الشيء، والنقصان بعد الزيادة، ودوران الشيء، وتدويره، واللون؛ فالحور: شدة بياض العين في شدة سوادها، والحواريون القصارون^(٢)، ومن معانيه: التجاوب، والاستنطاق؛ يقال: استحاره أي: استنطقه^(٣).

المحاورة اصطلاحًا:

مراجعة الكلام بين طرفين في مسألة اختلفت فيها نظرتهما؛ بقصد تصحيح الكلام، وإظهار الحجة، وإثبات الحق، في جو يغلب عليه الهدوء والإيجابية؛ لتبادل الأفكار، والتنوع في الآراء، مع الحرص على تقرير الحق والصواب^(٤).

الصلة بين الجدل والمحاورة:

إنّ المتأمل لمصطلحي الجدل والمحاورة يجد بينهما فروقاً دقيقة، منها:
كلمة المحاورة تتسع لكل أساليب التخاطب، سواء في حال التوافق أو الاختلاف، بينما

(١) انظر: التفسير الوسيط، محمد سيد طنطاوي ٦ / ١١٣.

(٢) القصارون: الذين يغسلون الثياب، فيبيضونها، وينقونها من النجاسات والقاذورات.

انظر: المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٣ / ٥٠٣.

(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢ / ٩٢، لسان العرب، ابن منظور ٤ / ٢١٧-٢٢١.

(٤) انظر: فنون الحوار والإقناع، محمد ديماس، ص ١١، معالم في منهج الدعوة، صالح بن حميد، ص ٢١٢.

كلمة الجدال تختزن في داخلها معنى الخلاف والشجار^(١).
المحاورة يسودها الهدوء والطمأنينة والتعاون، بينما الجدال يحمل في عمقه معاني التحدي والصراع غالبًا.
المحاورة وسيلة حضارية للتواصل وتبادل الأفكار والآراء، بينما الجدال وسيلة لإفحام الخصم وتقرير المذهب غالبًا.

٦ المخاصمة:

المخاصمة لغةً:

المخاصمة في اللغة مشتقة من المادة اللغوية (خصم)، ويأتي بمعنى الجدل والمنازعة؛ يقال: خصمه خصامًا وخصومة، أي: جادله ونازعه، ويعني الشق؛ يقال للخصمين: خصمان؛ لأخذ كل واحد منهما في شق من الحجاج والدعوى، والطرف والجانب والزاوية، تلقين الحجة؛ يقال: أخصم صاحبه إذا لقنه حجته على خصمه^(٢).

المخاصمة اصطلاحًا:

اللجاج في الكلام من أجل المعارضة والمعاندة ابتداءً؛ يستوفي به المخاصم مراده من خصمه، في جو من التشاحن والتباغض ورفض الآخر^(٣).

الصلة بين الجدال والمخاصمة:

إنّ المتأمل لمصطلحي الجدال والمخاصمة يجد بينهما فرقًا دقيقة، منها:
الجدال يكون ابتداءً واعتراضًا، بينما المخاصمة لا تكون إلا اعتراضًا.
الجدال يهدف إلى إفحام الخصم وتقرير المذهب، بينما المخاصمة تهدف إلى تحقيق المصلحة المادية أو المعنوية.
الحجة والدليل هو سبيل الحسم في الجدال، بينما المخاصمة تحتاج إلى طرف ثالث للفصل فيها.

الجدال يسوده جو من التعصب للرأي غالبًا، بينما المخاصمة يسودها جو من التباغض والشقاق.

(١) الحوار في القرآن الكريم، محمد حسين فضل الله، ص ٣٢.

(٢) انظر: تهذيب اللغة، الأزهرى ٧/ ١٥٤-١٥٥، مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ١٥٠، لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ١٨٠-١٨١.

(٣) انظر: فن الحوار، فيصل الحاشدي، ص ٢٠.

الجدال المحمود في القرآن الكريم

إنّ المتأمل لآيات القرآن الكريم المتعلقة بموضوع الجدال، يجد أنّها تدور حول نوعين من الجدال:

✽ الجدال المحمود.

✽ الجدال المذموم.

وستتناول في هذا المبحث النوع الأول وهو الجدال المحمود في القرآن الكريم.

والمراد بالجدال المحمود: الجدل الذي يقصد به إظهار الحق وتأييده بالأدلة والبراهين، والدعوة إليه بالحسنى، واستكشاف الأحوال، والعلم بالأمور المجهولة، وتعليم الآخرين العلم، أو تبين الباطل ودحضه والتحذير منه^(١).

وله صور عدة، يمكن تقسيمها إلى الأنواع الآتية:

أولاً: الجدال لبيان الحق:

لقد شرع الإسلام الجدال سبيلاً لبيان الحق، وإقامة الأدلة والبراهين عليه؛ بالعلم والمنطق والبيان، وبيان ضعف حجج المخالفين وتناقض مناهجهم، وإزالة الشبهات التي يثيرها أهل الباطل في مواجهتهم لأهل الحق، وإقامة الحججة على

(١) انظر: أنواع الجدل وأهمية التمسك بالسنة، موقع إسلام ويب، مركز الفتوى، رقم الفتوى/ ١١٣٤٦٤.

المخالفين من أهل الزيغ والضلال.

قال تعالى: ﴿بَلْ تَقْدِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨].

ومن أبرز صور الجدال لبيان الحق صورتان؛ وهما جدال الأنبياء عليهم السلام لأقوامهم، والجدال لأهل الكتاب.

الصورة الأولى: جدال الأنبياء عليهم السلام لأقوامهم:

لقد قدّم الأنبياء نماذج رائعة في الجدال الإيجابي؛ لبيان الحق، ودعوة الناس إليه، ودحض ما عليه أهل الباطل والإلحاد، سالكين أفضل السبل في تحقيق ذلك.

وتميز جدال الأنبياء عليهم السلام، بعدة ميزات، منها:

١. يقصد الأنبياء عليهم السلام من جدالهم تحقيق أمرين: دعوة الناس إلى الحق، وتقريره في نفوسهم، وردّ شبهاتهم، وتنقية النفوس منها.

لذلك فهو يحتاج إلى أسلوب راقٍ من أساليب القول والمحااجة، وحجة قوية، وكلمة معبرة^(٢).

وقد ظهر هذا المعنى جلياً في المجادلة القوية بين إبراهيم عليه السلام والنمرود.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ

(٢) انظر: مقال المحاجة، عويض العطوي، في موقعه الشخصي.

حيث نجد نبي الله إبراهيم عليه السلام لما ذكر له قومه سبب عبادتهم للأصنام؛ أنهم وجدوا آباءهم يعبدونها؛ ظانين أنه عليه السلام يقُدس الآباء وإن كانوا على ضلالة، فنراه عليه السلام جمعهم وآباءهم في التخطئة بلا هوادة؛ ليعلموا أن فعل الآباء مهما بلغوا من المكانة والتقدّيس لا قيمة له إذا تعارض مع حقيقة الألوهية، وتفرد الله عز وجل بالعبادة الخالصة^(٢)، «وأن الباطل لا يصير حقاً بكثرة المتمسكين به»^(٣).

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنبياء: ٥١-٥٤].

وأهل الباطل في جدالهم لا يملكون حجة حقيقية لما يعتقدون به، فغاية ما يحتجون به في كثير من مواقفهم لمعارضة أهل الحق، إظهار أهل الحق في صورة العاقين لأبائهم، المفرطين بثوابت الأجداد، فغاية حجّتهم التقليد الأعمى للآباء والأجداد.

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ آثَمٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾

فِي رَبِّهِمْ أَن آتَانَهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُعْبَدُ وَيُعْبَدُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة: ٢٥٨].

إن النمرود لما حاجّ نبي الله إبراهيم عليه السلام في الله عز وجل، جاءه عليه السلام بحجة قوية وهي قدرة الله عز وجل على إحياء الأجسام وإماتها ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُعْبَدُ وَيُعْبَدُ﴾، فقابل النمرود هذه الحجة بقدرته على ذلك من خلال القتل والعضو عن القتل ﴿قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾، وهنا يتنقل نبي الله إبراهيم عليه السلام معرضاً عن هذا الاعتراض الفاسد، إلى حجة لا يصلح فيها تمويه النمرود كما فعل في الحجة الأولى، ولا يقع فيها الالتباس، ويظهر فيها عجز النمرود عن نقضها ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾، ولكن أهل الضلال والطغيان لا يستجيبون لمثل هذه الأدلة، ويمتنعون عن سبل الهداية والرشاد؛ ظلماً لأنفسهم، وتكبراً عن الحق^(١).

٢. القوة في قول الحق، والجرأة في نقض الباطل، بغض النظر عن طبيعة المخالفين ومكانتهم.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٧/٩٥.

(٣) روح المعاني، الألويسي ١٢/٤٠٨.

(١) انظر: حاشية القنوي على أنوار التنزيل، البيضاوي، ٤٠٤/٥-٤٠٩.

[الزخرف: ٢٣].

وقد عاب الله عز وجل عليهم ذلك، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم تَسَالَوْا إِنَّا مَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ وَالَّذِينَ أُولُوا مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ يُخَالِفُونَ عَلَيْهِمْ مَا صَدَقُوا بِهِمُ مَن ذَاكَ الْقَوْمِ الضَّالُّونَ﴾ [المائدة: ١٠٤].

٣. إن جدال الأنبياء يحمل في طياته معاني المحبة والمودة والسماحة، يقابل الإساءة بالإحسان، ويرد الطعن واللعان بأجمل الكلمات وأرق العبارات، يهدف إلى الإقناع بالنظر والتدبر، ويتعد عن الإخضاع والإلزام بالقهر والسلطان^(١).

يظهر هذا المعنى جلياً في دعوة نبي الله نوح عليه السلام لقومه؛ حيث قابله بالاتهام والتشويه، فقابلهم بالتودد والتلطف.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِتِي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْآسِفِ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ بِأَلَدٍ لِّدِينٍ لَّيْسَ بِنَا أَرَادْنَاكَ بِأَدْوَى الرَّأْيِ وَمَا نَرَاكَ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكَ كَذِبِيًّا ﴿٢٧﴾ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَنْبَغٍ مِّن رَّبِّي وَءَانِنِي رَحْمَةً مِّن عِنْدِهِ فَعَمِيَّتْ عَلَيْكُمْ أَنْزَلْنَاكُمْهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَرِهُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [هود: ٢٥-٢٨].

إن نبي الله نوحاً عليه السلام يواجه قومه

رسالة التوحيد، منذراً المخالفين بالعذاب الأليم، ومبشراً المستجيبين بالجنة، مظهراً لهم خوفه عليهم من العذاب الأليم يوم القيامة، لكنه يجابه بالرفض المطلق من قومه؛ متعللين بكونه عليه السلام بشراً، وأن أتباعه من الضعفاء والفقراء والرعا، بل إن قوم نوح عليه السلام تهادوا في طغيانهم فوصفوا نبي الله نوحاً عليه السلام وأتباعه بالكذب^(٢)، ومع كل ذلك بقيت الرحمة هي الخلق البارز في تعامل نبي الله نوح عليه السلام مع قومه، الرحمة التي لا يعرفها إلا من استقام على منهج الله عز وجل، قد أخلص قلبه لله عز وجل، وصفت نفسه، وصدق عزمه ﴿قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَنْبَغٍ مِّن رَّبِّي وَءَانِنِي رَحْمَةً مِّن عِنْدِهِ فَعَمِيَّتْ عَلَيْكُمْ أَنْزَلْنَاكُمْهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَرِهُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

٤. الاعتقاد بأن ما يدعون إليه هو الحق الذي يجب على الناس اتباعه؛ فهو وحي الله عز وجل إليهم؛ ليخرجوا الناس من الظلمات إلى النور، خصهم الله عز وجل بميزات استحقوا بها الرسالة، وإن لم يستطع أصحاب البصائر العمياء من البشر إدراكها^(٣).

إن نبي الله نوحاً عليه السلام لما تكالب عليه قومه، وعابوا عليه أنه من البشر، انطلق

(٢) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ٦/ ١١٢٩-١١٣٢.

(٣) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ١٨٧٣.

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ١٨٧٣.

الناس جميعًا من أجل مناهضتهم وإحقاق الضرر بهم^(٢).

قال الله عز وجل حاكياً على لسان نبيه هود عليه السلام: ﴿إِن نَقُولُ إِلَّا أَعْرَبَكَ بِعَضِّ أَلْهَتِنَا يُسْوَوُ قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ بِاللَّهِ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا قُتِلْتُمْ كُونُوا مِن دُونِهِ فَكَيْدُ فِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ﴾ [هود: ٥٤-٥٥].

إن نبي الله هوداً عليه السلام لما دعى قومه إلى التوحيد جابهه قومه بالإنكار والجحود؛ حيث ترقوا في حججهم من السيء إلى الأسوء، فردّ عليهم حججهم الباطلة؛ معلناً براءته مما اقترفوه من الشرك، مشهداً الله عز وجل على ذلك؛ ثقةً منه بقوة حجته وبرهانه، مشهداً إياهم على رفضه لمنهجهم وشركهم غير مبال بهم، وبما يزعمونه من قدرة شركائهم على إيقاع الضرر به، ومتحدياً لهم أن يجمعوا كيدهم وشركاءهم؛ ليقوعوا به الأذى والضرر إن استطاعوا بلا إمهال ولا تأخير، وهذا دليل واضح على عدم خوفه منهم أو من آلهتهم المزعومة؛ فقد وكل أمر حفظه إلى الله عز وجل، فهو الحافظ لأوليائه، القاهر لأعدائه^(٣).

قال تعالى: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى

بكل ثقة مستيقناً بنفسه، مبيّناً لهم أن الله عز وجل منحه الحججة الواضحة البيّنة، وخصّه بالنبوة، قال تعالى: ﴿قَالَ يَقُولُونَ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى يَدَيْهِ مِنْ رَبِّي وَءَأْتِنِي رَحْمَةٌ مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِيتْ عَلَيْكُمْ أَنْزَلْنَاهُمْ مَوْجًا مَلَائِكَةً فَهَرَبُوا مِنْهَا كَهْرَبُونَ﴾ [هود: ٢٨].

كما حكى الله عز وجل عن الأنبياء وأقوامهم هذا الموقف المتكرر، قال تعالى: ﴿قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ نَصُدُّوكمَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَآتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ [١٠] قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [إبراهيم: ١٠-١١].

إن الاتفاق في البشرية لا يعني بالضرورة المساواة في كل شيء؛ فقد أجمع العقلاء على وجود التفاوت الكبير بين أفراد البشر في قدراتهم العقلية والفكرية والأخلاقية والإنتاجية؛ حتى أننا نجد من يأتي بالإصلاح والخير لأمته وأهله ما يفوق أفعال مئات الألوف من السابقين واللاحقين^(١)، فإذا كان هذا التفاوت بين عموم البشر، فكيف وإن كان الإنسان مؤيداً من الله عز وجل بالوحي والرسالة؟.

٥. الثقة بالله عز وجل، واليقين بنصره وتأييده؛ لأن الله عز وجل معهم، يحفظهم ويعصمهم من كل سوء، حتى ولو احتال

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥ / ٣٦١.

(٣) انظر: تفسير المراغي ١٢ / ٤٩-٥٠.

(١) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ١٢ / ٥٥.

صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٨﴾ [هود: ٥٦].

٦. إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ فِي جَدَالِهِمْ يَقْصِدُونَ قضية واحدة، ألا وهي قضية دعوة الناس إلى توحيد الله عز وجل، وإفراجه بالعبادة، لا يلتفتون لغيرها من القضايا، ولا ينصرفون عنها إلى مسائل جانبية يحاول المخالفين استدراجهم إليها؛ للتأثير على القضية الأولى موضوع الجدل^(١).

إِنَّ مِنْ أَهْمِ الْأَدَابِ الَّتِي يَجِبُ عَلَى الْمُجَادِلِ اسْتِعْمَالُهَا لِلْوَصُولِ إِلَى مَرَادِهِ وَبِغْيَتِهِ؛ تَحْدِيدُ السُّؤَالِ وَالْجَوَابِ، وَعَدَمُ الْخُرُوجِ مِنْ مَسْأَلَةٍ حَتَّى يَسْتَوْفِيَ الْكَلَامَ فِيهَا، وَأَلَّا يُسْمَحَ لِلْمُخَالَفِ أَنْ يَدْخُلَهُ فِي مَعَارِكٍ جَانِبِيَّةٍ^(٢).

فهذا نبي الله نوح عليه السلام لم يستطع قومه صرفه عن القضية التي يدعو إليها، أو يؤثروا في قوة طرحه لها.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٨﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ أَلَيْسَ لَكُمْ رَسُولٌ رَبِّي وَإِنْ أَنْصَحْتُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾

(١) انظر: آداب المناظرة، عمرو سليم، ص ١٥-١٦، في موقع الألوكة.
(٢) انظر: كتاب الجدل على طريقة الفقهاء، ابن عقيل الحنبلي، ص ٢.

[الأعراف: ٥٩-٦٢].

٧. الشجاعة والحزم في طرح الأدلة والبراهين، وعدم إعطاء المخالف الوقت الكافي للاستفادة من قدرات مؤيديه، ومباغنة المخالف بالحجة تلو الأخرى بكل صرامة وحسم.

يستفاد هذا المعنى من مناظرة نبي الله موسى عليه السلام مع فرعون.

قال تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّكُمْ مُوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّكُمْ تَقُولُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَيْنَ أَخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنْ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوْلَوْ جِئْتِكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بِيضَاءٌ لِلنَّظِيرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [الشعراء: ٢٣-٣٣].

إِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا جَابَهُ فِرْعَوْنُ بِالْحَقِيقَةِ الصَّادِمَةِ الْمَسْتَحْقَرَةِ لِشَأْنِهِ، وَهِيَ أَنَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ هُوَ رَبُّ هَذَا الْكُونِ الْهَائِلِ الْعَظِيمِ، وَأَنَّكَ يَا فِرْعَوْنَ لَا قِيَمَةَ لَكَ؛ لِأَنَّكَ تَدْعِي الرَّبُّوبِيَّةَ عَلَى قَوْمٍ مَخْدُوعِينَ، فَهَذَا يُرِيدُ فِرْعَوْنَ صَرَفَ أَنْظَارِ أَتْبَاعِهِ عَنْ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ بِأَنْ يَشَارِكُوهُ التَّعْجِبَ مِنْ مَقَالَةِ نَبِيِّ

الصورة الثانية: الجدل لأهل الكتاب:

إنّ المدافعة مع أهل الكتاب بدأت منذ اللحظة الأولى للإسلام، حيث كانت البداية بمظاهرة أهل الكتاب مشركي مكة على المؤمنين، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجَنَّةِ وَالْطَّغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ۗ﴾ [النساء: ٥١].

واستمرت عبر الأماكن والأزمان حتى يومنا الحاضر (٢).

إنّ باب المجادلة مع أهل الكتاب وغيرهم من المشركين مفتوح إلى قيام الساعة؛ لدعوتهم إلى الإسلام، وبيان أحكامه لهم، وإقامة الحجّة عليهم، على خلاف من قال إنّ آيات المجادلة والمحاجة للمخالفين في الدين منسوخة بآيات الجهاد.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «فإنّ من الناس من يقول: آيات المجادلة والمحاجة للكفار منسوخات بآية السيف؛ لاعتقاده أنّ الأمر بالقتال المشروع ينافي المجادلة المشروعة، وهذا غلط؛ فإنّ النسخ إنّما يكون إذا كان الحكم الناسخ مناقضاً للحكم المنسوخ؛ كمنافضة الأمر باستقبال المسجد الحرام في الصلاة للأمر

الله موسى عليه السلام، فيقول: ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ: أَلَا تَسْمَعُونَ﴾، لكنّ نبي الله موسى عليه السلام لم يمهلهم حتى يتفاعلوا مع فرعون، وأخذ يؤكد لهم وحدانية الله عز وجل، فيقول: ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾، وهكذا (١).

٨. إنّ الأنبياء عليهم السلام في جدالهم لا يرحون شيئاً من منافع الحياة الدنيا، أو تحقيق مكاسب دنيوية، بل هم يبتغون الأجر من الله عز وجل وحده، وهو أن يدخلهم الجنة يوم القيامة.

قال نوح عليه السلام لقومه: ﴿فَإِنْ قَوْلَيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُمْ مِنْ آجْرٍ إِنْ آجَرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۗ﴾ [يونس: ٧٢].

وقال هود عليه السلام: ﴿يَنْقُورُوا لَا آسَأَلْكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ آجَرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۗ﴾ [هود: ٥١].

وقال صالح عليه السلام: ﴿وَمَا آسَأَلْكُمْ عَلَيْهِ مِنْ آجْرٍ إِنْ آجَرِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ۗ﴾ [الشعراء: ١٤٥].

وقال تعالى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَنْقُورُ آتَيْتُكُمْ الْمُرْسَلِينَ ۗ آتَيْتُكُمْ مِنْ لَدُنِّي بِبَيِّنَاتٍ وَأَنْتُمْ مُتَعَدُونَ ۗ﴾ [يس: ٢٠-٢١].

(٢) انظر: رؤية شرعية في الجدل والحوار مع أهل الكتاب، الصمداني، ص ٤.

(١) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ١٠ / ٢٤١ - ٢٤٣.

باستقبال بيت المقدس بالشام... فأما مع إمكان الجمع بين الجدال المأمور به والقتال المأمور به فلا منافاة بينهما، وإذا لم يتنافيا بل أمكن الجمع لم يجز الحكم بالنسخ، ومعلوم أن كلاً منهما ينفع حيث لا ينفع الآخر، وأن استعمالهما جميعاً أبلغ في إظهار الهدى ودين الحق^(١).

وقد ثبت في السنة ما يؤيد ذلك، ففي الحديث عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (جاهدوا المشركين بأموالكم، وأنفسكم، وألستكم)^(٢).

وتشمل المجادلة لأهل الكتاب جميع أصنافهم ومراتبهم على اختلاف توجهاتهم وأحوالهم.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «والمجادلة قد تكون مع أهل الذمة، والهدنة، والأمان، ومن لا يجوز قتاله بالسيف، وقد تكون في ابتداء الدعوة؛ كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يجاهد الكفار بالقرآن الكريم، وقد تكون لبيان الحق، وشفاء القلوب من الشبه مع من

(١) الجواب الصحيح، ابن تيمية ١/٢١٨-٢١٩.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ١٩/٢٧٢، رقم ١٢٢٤٦، وأبو داود في سننه، كتاب الجهاد، باب كراهية ترك الغزو، ٢/٣١٨، رقم ٢٥٠٦.

وصححه الألباني صحيح أبي داود (الأم) ٧/٢٦٥، رقم ٢٢٦٢.

يطلب الاستهداء والبيان»^(٣).

إن المتتبع للآيات القرآنية المتعلقة بمجادلة أهل الكتاب يجد فيها تنوعاً في أساليب المجادلة، ويمكن إجمال هذه الأساليب في النقاط الآتية:

١. المجادلة بالحسنى.

لقد بين القرآن الكريم فضيلة المجادلة بالأسلوب الحسن، وبالحكمة والموعظة الحسنة للمسلمين من أهل الكتاب؛ لأن ذلك أدعى إلى تحقيق الهدف المنشود، وإيجاد القناعة لديهم، والوصول بهم إلى الإيمان بالله عز وجل^(٤).

قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْدِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

تشير الآية السابقة إلى مشروعية مجادلة الذين يبحثون عن المعرفة والاستبصار بالدين من أهل الكتاب، بأسلوب لين كريم، وبحسن الإرشاد إلى طريق الحق، والرفق في التعليم^(٥).

«وجه الوصاية بالحسنى في مجادلة أهل الكتاب؛ أن أهل الكتاب مؤمنون بالله غير مشركين به، فهم متأهلون لقبول الحجة غير مظنون بهم المكابرة، ولأن آداب دينهم وكتابهم أكسبتهم معرفة طريق المجادلة،

(٣) النبوات، ابن تيمية، ص ٦٢١.

(٤) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢١/١١.

(٥) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ١١/٤٥، أيسر التفاسير، أسعد حومد، ص ٩٨٥.

مجموعة من أبناء الأمة من التقارب معهم، والعمل في القضايا المشتركة والبعد عن نقاط الخلاف؛ فالدعوة الإسلامية «دعوة» وبيان للحق، وكشف للباطل، وبيان لضرره في الدنيا والآخرة»^(٣).

٣. المباهلة.

إنّ هذه المرتبة درجة بين المرتبتين السابقتين؛ فلم يبلغ أهل الكتاب درجة التعامل بالحسنى، ولا هم بلغوا درجة المجادلة بالسيف، والتعامل بالغلظة؛ فكانت هذه المرتبة، للتعامل مع المكابرين الذين يصرون على حججهم الباطلة، ومدافعة الحق.

قال تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾

[آل عمران: ٦١].

«وهذه المباهلة لعلها من طرق التناصف عند النصارى فدعاهم إليها النبي صلى الله عليه وسلم لإقامة الحججة عليهم»^(٤).

إنّ المؤمنين عندهم من اليقين الصادق والإيمان العميق ما يجعلهم يقبلون أيّ سبيل في مواجهة أهل الإنكار والجحود، بينما الكافر المكابر الذي لا يملك يقيناً لن

(٣) الحوار بين الأديان حقيقته وأنواعه، عبدالرحيم السلمي، ص ٨.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣/ ٢٦٥.

فينبغي الاقتصار في مجادلتهم على بيان الحججة دون إغلاظ حذرًا من تفيرهم»^(١).

٢. المجادلة بالسيف والإغلاظ.

إنّ من أراد الهداية من أهل الكتاب أمرنا أن نعامله بالحسنى، أما من ظلم وعاند، وقصد بمجادلته الإساءة إلى الإسلام، والسعي في إيذاء المسلمين، وظهر تصلبه، وانقطع الأمل من إقناعهم بالحجة والبرهان، فقد أمر الإسلام أن نجادلهم بالسيف، ونعاملهم بالغلظة»^(٢).

قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

وقال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَأْمُرْهُمْ بِجَهَنَّمَ وَيَسِّرْ الْمَصِيرَ ﴿٧٣﴾﴾ [التوبة: ٧٣].

إنّ حال اليهود والنصارى اليوم أقرب إلى هذه الحالة؛ فهم يحاربون الإسلام سياسياً وفكرياً وعسكرياً في كل مكان، ويسعون بكل طاقاتهم وإمكاناتهم لتشويه الإسلام والملتزمين به، من خلال وصفهم بالتطرف تارة، وبالأصولية تارة ثانية، وبالإرهاب تارة أخرى، فكان الواجب على المسلمين اليوم مجادلتهم بما يتناسب مع حالهم بالشدة والغلظة، على خلاف ما ينادي به اليوم

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ٦.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ٦، أيسر التفاسير، أسعد حومد، ص ٩٨٥.

يقبل بالمباهلة أبداً، وسيبحث عن مبررات لنكوصه وتراجعته؛ لذلك فإن الآية السابقة قد لقت النبي صلى الله عليه وسلم، وأمتة من بعده الجواب الحاسم الذي يخرس أسنة المكابرين في كل زمان، ويتحداهم أن يقبلوا بالمباهلة إن كانوا صادقين^(١).

وهذه درجة متقدمة في حوار أهل الكتاب، ولها فائدة عظيمة من جهتين:

الأولى: إظهار التحدي، والثقة التامة بأن الداعي إلى المباهلة على الحق.

الثانية: إرهاب المعاند، وحمله على الجد والحزم، بالتعرض لعنة الله عز وجل.. فربما نزع واستغفر واستعتب^(٢).

٤. مبادرة أهل الكتاب بالدعوة.

إن هذا الأسلوب لا يحمل معاني الجدل والمغالبة والتحدي، بقدر ما يحمل معاني الدعوة والمبادأة للمخالفين في المنهج والدين؛ يعرض عليهم الحق الذي عنده، ويبين لهم معالم دعوته الصادقة.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران: ٦٤].

(١) انظر: تفسير الشعراوي ٣/ ١٥٢٠، التفسير الوسيط، طنطاوي ٢/ ١٢٩.

(٢) دعوة التقريب بين الأديان، أحمد القاضي، ص ١٥٧٦.

إن هذا المنهج يقوم على الاجتماع على الأصول العقديّة المجمع عليها عند أصحاب الرسالات؛ من توحيد الله عز وجل، وإفراجه بالعبودية والإخلاص، ورفض الشبهات التي تناقضها؛ حيث كانت جميع الرسالات متفقة على ذلك^(٣).

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

«إن أهل الإسلام لا يستقيم أمرهم، ولا يعبرون بصدق عن دينهم، إلا أن يكونوا أصحاب مبادرة للقيام بأمر الله عز وجل، وغاية واضحة في الدعوة إلى الله عز وجل، وخطة بيّنة بالالتزام بمنهج الله عز وجل، كما دلّت عليه الآية العمدية، وإلا تقاذفتهم ألعيب الذين كفروا من أهل الكتاب، ومبادراتهم العبيثة الموسومة بالتقارب والحوار ونحوها»^(٤).

٥. هدم باطل أهل الكتاب ونقضه.

إن منهج المؤمنين الحق يقوم على هدم ما عند الناس من الباطل والخلل، وعدم التسليم لهم بدعواهم إلا بالدليل والبرهان. قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا تِلْكَ آمَانِيُهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾

(٣) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ٣/ ٢٦٨.

(٤) دعوة التقريب بين الأديان، أحمد القاضي، ص ١٥٧٠.

﴿١١١﴾ [البقرة: ١١١].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا كُفُّوا هُودًا أَوْ نَصْرِي تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٣٥].

إن أهل الباطل يقيمون الأدلة الواهنة على مبادئهم ومعتقداتهم، ويتمسكون بها؛ من أجل مشاغبة أهل الإيمان، والتشويش عليهم؛ لذلك وجب على المؤمنين عدم قبول أيّ دعوى نفيًا أو إثباتًا دون دليل أو برهان صحيح يدعمها.

يقول الإمام الطبري: «وهذا الكلام وإن كان ظاهره ظاهر دعاء القائلين: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِي﴾ إلى إحضار حجة على دعواهم ما ادعوا من ذلك، فإنه بمعنى تكذيب من الله عز وجل لهم في دعواهم وقيلهم، لأنهم لم يكونوا قادرين على إحضار برهان على دعواهم تلك أبدًا، وقد أبان قوله: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [البقرة: ١١٢].

عن أنّ الذي ذكرنا من الكلام بمعنى التكذيب لليهود والنصارى في دعواهم ما ذكر الله عز وجل عنهم^(١).

ثانيًا: الجدال عن النفس:

إنّ من طبيعة الإنسان أن يحاول بكل جهده وطاقته، دفع الشر والسوء عن نفسه؛

فراه يتعلق بأيّ أمر يعتقد أنّه يدفع عنه الضرر والأذى، وأحوج ما يكون إلى هذه المدافعة والمجادلة يوم القيامة؛ لما فيه من الأهوال والأحوال لذلك نجده يجادل عن نفسه، ويدافع عنها؛ طمعًا في رحمة الله عز وجل ومغفرته؛ لأنّها علمت سعة رحمة الله عز وجل وعظيم مغفرته، إذ تتجلى رحمة الله عز وجل ومغفرته في هذا اليوم؛ لتغشى عباده الموحدين، فهم أكثر ما يكونون طلبًا لهما واحتياجًا إليهما^(٢).

قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿١١١﴾ ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهِيَ لَا يَظْلُمُونَ﴾ ﴿١١١﴾ [النحل: ١١٠-١١١].

فالإنسان يوم القيامة لا يعنيه شيء سوى نفسه؛ فيسعى في خلاصها من الأهوال العظيمة في ذلك اليوم العصيب، لا يلتفت لأحد، شعاره: نفسي نفسي.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّلَاةُ فَاسْتَعِذْ بِهَا﴾ ﴿٣٣﴾ ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ ﴿٣٤﴾ ﴿وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ﴾ ﴿٣٥﴾ ﴿وَصَخِيئِهِ﴾ ﴿٣٦﴾ ﴿لِكُلِّ أُمَّرِيٍّ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُفِيدُهُ﴾ ﴿٣٧﴾ [عبس: ٣٣-٣٧].

إنّ اشتداد الأهوال يوم القيامة يشغل كل امرئ بنفسه، يدافع عنها؛ لعلها تنجو

(٢) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٧/ ٣٨٣.

(١) جامع البيان، الطبري ٢/ ٥١٠.

حيث عطلوا عقولهم في الدنيا عن النظر والتأمل، وراحوا يقلدون أئمتهم ورؤساءهم من الجن والإنس، فاليوم وبعد فوات الأوان حصل بينهم التباضع والمعادة^(٣).

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرَنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لِيَجْعَلَ لِمَنْ هَٰذَا أَقْدَامَنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ [٢٩] [فصلت: ٢٩].

فتوسلوا لله عز وجل بعزمهم على الانتقام ممن كانوا رأساً في ضلالهم؛ لعلهم يظفرون بتخفيف العذاب عن أنفسهم، وإذلال قادة الضلال، وأئمة الكفر، وزيادة التنكيل بهم.

٣. محاولة الكذب على الله عز وجل؛ بنفيهم الوقوع في الشرك.

قال تعالى: ﴿قَدْ لَرَّ تَكُنْ فِتْنَتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [٢٣] انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَصَلَّ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا يَفْعَرُونَ [٢٤] [الأنعام: ٢٣-٢٤].

إنَّ الله عز وجل يحشر المشركين مع آلهتهم التي عبدوها من دون الله عز وجل في الدنيا، فيسألهم عنها، فيجيبون بالإنكار والجحود ﴿وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، وهم بهذا الفعل يدافعون عن أنفسهم، ويحاولون الإفلات من عذاب يوم القيامة، مع اعتقادهم خلاف ما يقولون، وعلمهم

من العقاب، لكنَّ الأمر أشد، إنَّما هو الجزاء، تجازى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون^(١).

لذلك نجد أنَّ المجادلين عن أنفسهم يوم القيامة سلكوا سبلاً متعددة في الدفاع عن أنفسهم، منها:

١. الحلف الكاذب بالله عز وجل على براءتهم من الشرك والمشركين.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكَ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَّا يَأْتِيَهُمْ اللَّهُ الْكَذِبُونَ﴾ [المجادلة: ١٨].

إنَّ الله عز وجل لما يبعث الناس يوم القيامة مجتمعين، يعاتبهم على ما صدر منهم من معصية وضلال ونفاق، فيحلف المنافقون منهم والمشركون له سبحانه وتعالى على إسلامهم وإيمانهم كما كانوا يحلفون للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين في الدنيا؛ ظانين أنَّهم سيحققون نفعاً لأنفسهم، ودفعاً للضرر الحاصل لهم من حلفهم الكاذب، كما حققوا بعض مكاسبهم في الدنيا، ولكنَّهم لم يعلموا أنَّ الله عز وجل يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور^(٢).

٢. إظهار إرادة الانتقام ممن كان سبباً في ضلالهم ودخولهم النار.

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤ / ٢١٩٧.
(٢) انظر: الفواتح الإلهية، نعمة الله النخجواني ٢ / ٣٩٧.

(٣) انظر: نظم الدرر، البقاعي ٦ / ٥٧٠.

أَهْلَكْتَهُمْ بَعْدَآبٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا
أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن
تُنزِلَ وَتُخْرِزَنَا ﴿١٣٤﴾ [طه: ١٣٤].

ثالثاً: الجدال في الدعوة إلى الله تعالى:

إنَّ الدعوة إلى الله عز وجل وظيفة
الأنبياء والمرسلين عليهم السلام ومن
تبعهم بإحسان، سلكوا في سبيلها كل
الوسائل والأساليب المشروعة؛ لإيصال
دعوة التوحيد للناس في كل بقاع الأرض،
وبما أنَّ الجدال ظاهرة بشرية فطرية ملازمة
للإنسان؛ لنقل الأفكار والآراء، وبناء
المواقف والاتجاهات، كان لزاماً على
الأنبياء والمرسلين عليهم السلام وأتباعهم
سلوك هذا الطريق نصرةً للحق، ونشراً
للدين الحنيف والدِّب عنه (٣).

إنَّ سلوك طريق الجدال في الدعوة مقيد
بضوابط وأحكام أشارت إليها الآية الكريمة.

قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ
وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجِدِّ لَهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ
إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ
أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٣٥﴾ [النحل: ١٢٥].

وهناك ضوابط للمجادلة بالتي هي
أحسن، وهي:

١. إخلاص النية لله عز وجل.

فالداعية إلى الله عز وجل لا يتغنى من

بالحقيقة الكاملة؛ وهي أنَّهم قد كذبوا بالله
عز وجل في الدنيا، ويريدون أن يعيدوا
الكرة يوم القيامة، لكنَّ الله عز وجل عالم
بخفايا القلوب والنفوس (١).

٤. إظهار الخضوع والتذلل لله عز وجل

متمنين من الله عز وجل أن يكرمهم
بفرصة أخرى؛ ليؤمنوا ويتبعوا منهج
الإيمان والتوحيد.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ قَالُوا
يَلَيْتُنَا نَرُدُّ وَلَا نَكُذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَكُنَّا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ
﴿١٣٧﴾ بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا
لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٣٨﴾ [الأنعام: ٢٧-

[٢٨

إنَّ المشركين عند رؤيتهم لهيب النار،
يتمنون العودة إلى الحياة الدنيا زاعمين أنَّهم
يريدون الهداية والاستجابة لأمر الله عز
وجل، لكنَّ الحقيقة هي الخوف من لهيب
النار بعدما ظهر ما كانوا يخفونه من الذنوب
والمعاصي في الحياة الدنيا، وتأكدوا من
صدق ما أنكروه في الدنيا، ولو ردهم الله
عز وجل إلى الدنيا لعادوا إلى التكذيب
بآيات الله عز وجل، ولحاربوا أوليائه؛ لأنَّ
التكذيب والجحود والعناد والافتراء طبعٌ
متجلِّزٌ فيهم (٢).

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا

(٣) انظر: منهجية الحوار الجدلي في القرآن
الكريم والسنة النبوية، أحمد الطعان، ص ٢.

(١) انظر: تفسير الشعراوي ٦ / ٣٥٦١.
(٢) انظر: التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ٥ / ٦٢.

يرتك الداعية إلى الله عز وجل سبيلاً للمخالف يتفلسف من خلاله، أو حجة يتمسك بها، أو شبهة يستأنس بها على باطله.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّكَ إِبْرَاهِيمَ فِي رَيْبِهِ أَنِ اتَّخَذَ اللَّهُ الْمَلَائِكَةَ آلًا لِّرَبِّهِمْ رَبِّيَ الَّذِينَ يُتَّبِعُونَ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَأَتَتْ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِينَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ [البقرة: ٢٥٨].

٤. أن تكون المجادلة في إطار الأدب والخلق، وألا تؤدي إلى الخصام والملاسة؛ وتبتعد عن تحقيق المقصود.

فالمجادلة بالحسنى هدفها هداية الخلق، وقصد الحق، وليس إفحامهم والغلبة عليهم^(٤).

قال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾﴾ [الإسراء: ٥٣].

٥. أن تكون المجادلة مبنية على الرفق

(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٤٥٢.

وراء الجدال المفروض عليه إلا مرضاة الله عز وجل، والوصول إلى الحق المبين، بعيداً عن المباهاة والرياء^(١)، قال تعالى: ﴿فَيَسِّرْ عِبَادَ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾﴾ [الزمر: ١٧-١٨].

٢. الاحتجاج على المخالف بالأدلة التي يعتقدها؛ فإن ذلك أقرب لفهمه، وأدعى إلى حصول المراد من المجادلة^(٢).

يظهر هذا المعنى في نقاش النبي صلى الله عليه وسلم مع الشاب الذي جاء يستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد أخرج الإمام أحمد في مسنده من حديث أبي أمامة رضي الله عنه قال: إِنْ فَتَى شَابًّا أَمَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ائْذَنْ لِي بِالزَّنَا، فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ عَلَيْهِ فزَجَرُوهُ قَالُوا: مَهْ مَهْ، فَقَالَ: (ادنه فدنا منه قريباً، قال: فجلس قال: (أتحبّه لأمك؟) قال: لا والله جعلني الله فداءك، قال: ولا الناس يحبونه لأمهاتهم)،... الحديث^(٣).

٣. أن تكون الأدلة والبراهين واضحة، تعطي مدلولاً محدداً؛ بحيث لا

(١) انظر: آداب المناظرة، عمرو سليم، ص ١٠.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٤٥٢.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ٥٤٥/٣٦، رقم ٢٢٢١١.

وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٧١٢/١، رقم ٣٧٠.

المساس بشخص المخالف أو مكانته^(٤).

فقد ذم الله عز وجل المكذبين بحقيقة عيسى عليه السلام؛ حيث رفضوا الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأخذوا يجادلون فيه، ويشككون في الحق بعد ظهوره^(٥).

قال تعالى: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ [مريم: ٣٤].

٨. إنصاف المخالف، وإنزاله منزلته، والثناء عليه عند الصواب، ونصحه إذا أساء.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّكَ اللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

٩. الإشفاق على المخالفين، والرحمة بهم، والتودد إليهم، وإظهار الحرص على استنقاذهم من باطلهم، وحمايتهم من أنفسهم^(٦).

يظهر هذا المعنى في جدال مؤمن آل فرعون لقومه.

واللين وحسن الإقناع وسعة الصدر. فإن ذلك أدعى إلى تهدئة نفوس المخالفين، والتقليل من تعصبهم وعنادهم^(١)، وتكون مدعاة لتفلتهم من الحق، وانصرافهم عن مجلس الدعوة^(٢).

فقد أمر الله عز وجل موسى وهارون عليهما السلام أن يخاطبا فرعون رمز الكبر والجحود بلين الجانب مع الرفق وغاية التلطف^(٣) فقال تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّينًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤].

٦. أن تكون المجادلة مبنية على العلم والمعرفة.

فلا يصح من الداعية الدخول والمدافعة عن أمر أو حكم وهو غير عالم به، محيط بجميع أبعاده؛ ثلثا يتيح للمخالفين الفرصة في الطعن في أفكاره ومعتقداته؛ فتصبح المفسدة المترتبة على هذا الجدال تفوق بكثير المصلحة المقصودة.

قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحٰنَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

٧. إشعار المخالف أن المقصود من مجادلته هو الوصول إلى الحق والصواب، بعيدا عن المراء، أو

(١) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٨ / ٢٦٢.

(٢) انظر: تفسير الشعراوي ١٣ / ٨٢٨٦.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤ / ٦١٣.

(٤) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٨ / ٢٦٢.

(٥) انظر: تفسير الشعراوي ١٤ / ٩٠٧٩.

(٦) انظر: آداب المناظرة، لعمره سليم، ص ٣١.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظَلَمًا لِلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ النَّارِ ﴿٣٢﴾﴾ [غافر: ٣٠-٣٢].

رابعاً: الجدل في الخصومة:

إن من طبيعة الإنسان المجادلة عن حقه إذا وقع في الخصومة والنزاع؛ طلباً لحقه من وجهة نظره وفهمه، ودفعاً لأي سوء يقع عليه.

ونتناول في هذا المقام موقفين للمجادلة في الخصومة والاختلاف، وهما:

الموقف الأول: خولة بنت ثعلبة رضي الله عنها تجادل النبي صلى الله عليه وسلم في أمر زوجها.

لقد جادلت خولة رضي الله عنها النبي صلى الله عليه وسلم في أمر زوجها الذي حرّمها على نفسه بعد أن طالت صحبتها معه، كبر سنّها، ثم يقول لها (أنت علي كظهر أمي)، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول لها: قد حرمت عليه، وهي ما تزال تراجع النبي صلى الله عليه وسلم حتى نزل قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ

اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾﴾ [المجادلة: ١] والآيات

التي بعدها^(١).

عن عائشة رضي الله عنها قالت: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة إلى النبي صلى الله عليه وسلم تكلمه وأنا في ناحية البيت، ما أسمع ما تقول، فأنزل الله عز وجل على النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾﴾ [المجادلة: ١]^(٢).

الموقف الثاني: جدال ابني آدم عليه السلام في أمر قبول القربان.

لقد قصّ علينا القرآن الكريم خصومة ابني آدم عليه السلام، حتى وصلت بأحدهما إلى قتل أخيه.

قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُنْقَبَلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِن بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [المائدة: ٢٧-٣٠].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٢١٩.
(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٤٠/ ٢٢٨، رقم ٢٤١٩٥.

وصححه الألباني في إرواء الغليل ٧/ ١٧٥.

الجدال المذموم في القرآن الكريم

إنّ الله عز وجل قد أباح للحاجة والضرورة الجدال المحمود الذي يهدف إلى الوصول إلى الصواب والحق، في جو من الإيجابية والتعاون، أو تمييز الحق من الباطل، ومدافعة أهل الباطل بطريقة مؤدبة وراقية، أمّا إن تحوّل الجدال إلى اللدد والخصومة، والشحناء وسوء الأدب، وأدى إلى الفرقة والشقاق، والهجر والقطيعة، أو قصد إلى محاربة الفضيلة وإشاعة الرذيلة، والترويج للأفكار المنحرفة الضالة^(٢)، فهو حرام شرعاً، ذمّه القرآن الكريم في العديد من الآيات، وحاربه وأمر بتركه وعدم الخوض فيه، وستتناول في هذا المبحث الجدال المذموم في القرآن الكريم، مبينين مفهومه، وأهم صوره الواردة في القرآن الكريم.

والجدال المذموم: هو الجدل الذي يقصد به مدافعة الحق، ومعارضة أمر الله عز وجل وأمر النبي صلى الله عليه وسلم، وإظهار الباطل وتأييده، أو يفضي إلى الباطل، ويسعى للترويج للمذاهب الكاسدة والعقائد الباطلة، وإفحام الخصم والتعالي

إنّ الخصومة وقعت بين ابني آدم عليه السلام، أحدهما قد ملأ الإيمان قلبه؛ فاستقام على طاعة الله عز وجل، ممثلاً أمره ومجتنباً نهيه، والآخر استحوذ الشيطان على قلبه، وزين له معصية ربه؛ فلم يراعي لله عز وجل حرمة، ولم يحفظ لأخيه قرابة، حيث قرباً قريباً إلى الله عز وجل ابتغاء رضوانه ومغفرته ورحمته، ودليلاً على صحة المعتقد وسلامة المنهج، لكنّ النتيجة كانت القبول من أحدهما وعدم القبول من الآخر؛ فتحركت الغيرة في قلبه، فدبت الخصومة بينهما، ووصلت بأحدهما إلى حد العدوان والانتقام، بحيث تمتد يده على أخيه ليقتله، لكننا نجد في المقابل خلق المؤمن الحق الحريص على سلامة أخيه، فيجيبه بأدب وهدوء، وتوجيه صادق إلى تقوى الله عز وجل والالتزام بأمره ﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِن بَسَطْتَ إِلَيْكَ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾، ويحذره من مواصلة السير في هذا الطريق؛ لأنّه يجلب له الهلاك والعذاب ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾، لكنّ الخصومة حجبت الحق عن الأخ العاصي فقتل أخاه، وأسأل دمه على الأرض^(١).

(١) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم

الخطيب ٣/ ١٠٧٣-١٠٧٦.

(٢) انظر: أنواع الجدال المذموم، أبو حزم فيصل بن المبارك مقال، موقع الشبكة الفقهية الملتنقى الفقهي.

عليه، وإظهار مزية النفس^(١).

وله صور عدة، يمكن تقسيمها إلى الأنواع الآتية:

أولاً: الجدل في الإيمان:

لقد جادل أهل الكفر والضلال في الإيمان والتوحيد؛ فجدهم ينكرون وجوب التعبد لله عز وجل، أو يعبدون آلهة من دون الله عز وجل بلا سلطان ولا دليل، ويطلبون منها الظفر والنصر، أو يتخذونها واسطة للتقرب إلى الله عز وجل.

ونتناول في هذا المقام صوراً من الجدل في الإيمان، وهي كما يأتي:

الصورة الأولى: الجدل في الله عز وجل.

يظهر أناس في كل زمان ومكان لا يعترفون بوجود إله خالق رازق مدبر لهذا الكون، أو ينكرون وحدانيته سبحانه وتعالى ويعبدون معه آلهة أخرى، أو يجادلون في أمور غيبية أخبر بها الله عز وجل أنبياءه عليهم السلام؛ ينكرون بعضها ويأولون بعضها الآخر، أو يرفضون أحكامه وتشريعاته؛ كل ذلك جدال في الله عز وجل^(٢).

(١) انظر: أنواع الجدل وأهمية التمسك بالسنة ونبذ التعصب للرجال، موقع إسلام ويب، مركز الفتوى، رقم الفتوى ١١٣٤٦٤، أنواع الجدل المذموم، أبو حزم فيصل بن المبارك، موقع الشبكة الفقهية الملتقى الفقهي.

(٢) انظر: تفسير الشعراوي ١٦ / ٩٦٩٤، التفسير

والمستبج لآيات القرآن الكريم يتبين له أسباب جدال أعداء الإسلام في الله عز وجل، والتي توضح لنا مدى سخافة عقول هؤلاء الناس وقصور فهمهم وإدراكهم، ويمكن إجمالها في الأسباب الآتية:

١. الجهل بالدليل والبرهان، وقصور النظر والبصيرة، وفقدان السند من الوحي الصحيح.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الحج: ٨].

٢. متابعة أقوال أئمة الكفر والفساد.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾ [الحج: ٣].

إن المتأمل للآيتين السابقتين يظهر له حقيقة مهمة وهي:

أن الآية الأولى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾، متعلقة بالرؤساء والزعماء الداعين إلى الضلال والفساد، الحاملين للواء الصد عن سبيل الله عز وجل، المتبوعين بالكفر والضلال؛ بدليل قوله تعالى بعد هذه الآية:

﴿ثَانِي عَطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الحج: ٩].

الوسيط، طنطاوي ٩ / ٢٧٥.

تضفي على صاحبها حالة من الانبهار بالنفس وتعظيم الذات، والتي تقود صاحبها إلى منازعة الله عز وجل في سلطانه وحكمه، فيدعون صفات ليست لهم، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِزْرَهُمْ فِي رَيْبِهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمَلَكَ إِذْ قَالَ إِزْرَهُمْ رَبِّيَ الَّذِي يُعْتَمِدُ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِزْرَهُمْ فَأَيُّكَ اللَّهُ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الضَّالِّينَ ﴿٢٥٨﴾ [البقرة: ٢٥٨].

٤. اتباع الهوى.

إن من أهم الأسباب المؤدية بصاحبها إلى المجادلة في الله عز وجل اتباع الهوى؛ والناس في ذلك صنفان:

من يتبع هواه على علم، قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمِهِ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَغَلَّقَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشْوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ [الجاثية: ٢٣].

ومنهم من يتبع هواه بغير علم، قال تعالى: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٢١﴾ [الروم: ٢٩].

وتتعدد المظاهر التي ذكرها القرآن الكريم لجدال أهل الكفر والإلحاد في الله عز وجل:

١. وصف الله عز وجل بما لا يليق من

وَأَنَّ الْآيَةَ الثَّانِيَةَ ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴿٢﴾ متعلقة بالاتباع الجهلة الذين يخاصمون بغير علم اتباعاً لأقوال زعمائهم من أهل الفساد والجهود؛ سواء أكانوا من شياطين الإنس أو الجن؛ بدليل قوله تعالى: ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾ [الحج: ٣] (١).

وبدليل قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولَئِكَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ سَعِيرٍ ﴿٢١﴾ [لقمان: ٢٠-٢١].

إن الناظر في حال الأمة الإسلامية اليوم ليجد هذين الصنفين الأتباع والمتبوعين وبكل سهولة، فنجد الأتباع الذين يصفقون لكل ناعق، دون نظر أو فكر، أو تحقيق مصلحة أو دفع مفسدة، يوادون ويبغضون بأمر زعمائهم، سواء وافق أحكام الشرع أم خالفها، حيث جعلوهم في مقام الشرع، وكان حالهم كما تصوره الآية الكريمة، قال تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْبَدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤَنَا﴾ [الأعراف: ٧٠].

٣. الملك والسلطان.

إن الشعور بعظمة الملك والسلطان

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي / ٤ / ٢٨٠.

صفات النقص.

لقد تجرأ أهل الكفر على الله عز وجل فوصفوه بأوصاف النقص، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، ذكر القرآن الكريم بعضاً من هذه الأوصاف، ومنها:

• البخل وعدم الإحسان.

قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُمُوهُمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُخْفِي كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٦٤].

• الفقر والحاجة.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَتَكُنُّبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلُ دُونُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [آل عمران: ١٨١].

• الافتراء على الله عز وجل بأن له صاحبةً وولداً.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا أَخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۗ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا﴾ [مريم: ٨٨].

وقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ تَمَلَّجَ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الجن: ٣].

• الافتراء بأن عيسى عليه السلام، وعزيراً عليه السلام ابنا الله عز وجل.

قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزْرُ بْنُ اللَّهِ وَوَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحَ ابْنَ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَسَلْنَا لَهُمُ اللَّهُ

أَن يُوَفَّكَونَ ﴿٣٠﴾ [التوبة: ٣٠].

• الافتراء بأن الملائكة بنات الله عز وجل.

قال تعالى: ﴿أَفَأَصْفَكَ رَبُّكُمْ بِالْبَيْنِ وَأَتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا إِنَّكُمْ لَقَوْلُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ [الإسراء: ٤٠].

• الافتراء بأن عيسى عليه السلام هو الله عز وجل.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧].

٢. الكذب على الله عز وجل.

وقد تعددت مقالات الكذب في أحوال مختلفة، منها:

• تبرير كفرهم بأن الله عز وجل قد أعطاهم عهداً ألا يؤمنوا لرسول ما لم يأتيهم بقربان تأكله النار.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عٰهَدَ إِلَيْنَا آلا نُؤْمِنُ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِ يَابِسْتِكَ وَبِالْأَيْدِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٨٣].

• الادعاء أنهم أبناء الله عز وجل وأحباؤه.

قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِر لِمَن

وعنادهم، ومجادلتهم في أوثان سموها آلهة، أو أطلقوا عليها أسماء ليس لها مسميات في الحقيقة، لا تملك لنفسها ضرراً ولا نفعاً، وليس عندهم دليل يؤيد زعمهم في ألوهيتها وقدرتها على النفع والضرر، وهذا دليل على انعدام مداركهم وسخف عقولهم، ولأجل ذلك فإن عاقبتهم ستكون وخيمة^(١).

والمتمأمل في أسباب مجادلة الكفار في اتخاذهم آلهة من دون الله عز وجل يرجعها للأمور التالية:

١. ابتغاء النصر منها.

قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُخَضَّرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [يس: ٧٤-٧٥].

٢. رجاء حصول الشفاعة لهم عند الله عز وجل بعبادتهم تلك الأصنام.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾﴾ [الزمر: ٣].

٣. استبعادهم وحدة الآلهة، وأن يكون الرسول بشراً.

قال تعالى: ﴿وَجَاءُوا بِجَاهِهِمْ مُنذِرَاتِهِمْ وَقَالَ الْكٰفِرُونَ هٰذَا سِحْرٌ كٰذٰبٌ ﴿٥﴾ اٰجَعَلُ

بِسْمِ اللَّهِ وَيَمْدُبُ مَنْ يَشَاءُ ﴿ [المائدة: ١٨].

❊ الافتراء بأن اليهود والنصارى هم أهل الجنة فقط.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا تِلْكَ آيَاتُهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾﴾ [البقرة: ١١١].

الصورة الثانية: الجدال في الأصنام والآلهة التي يعبدها المشركون من دون الله عز وجل.

لقد اتخذ أهل الكفر والضلال أصناماً أو آلهة من صنع أفكارهم وعقولهم الفاسدة، يتقربون إليها، ويعبدونها، ويقدمون لها القرابين؛ رجاء حصول النفع، ودفع الضرر، وتحقيق الحماية والأمن، سواء كانت هذه الآلهة إنساً أو جنّاً أو حجراً.

قال تعالى: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَعَصَبٌ أَنْتُمْ جِدُلُونَ فِيهِ فَمَا نَزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطٰنٍ فَاَنْظُرُوا اِلٰى مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الأعراف: ٧١].

إن كل من يخالف أمر الله عز وجل، ويعبد من دونه آلهة أخرى، فإن عذاب الله عز وجل واقع به، لا مفر ولا نجاة له منه، وأن انتقامه سبحانه وتعالى بهم لا يمكن دفعه والوقوف في سبيله؛ لأنه واجب من الله سبحانه وتعالى لهم؛ بسبب كفرهم

(١) انظر: التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ٣٠٧/٥.

الْأَلْهَةَ إِلَهًا وَحِدًا إِنَّ هَذَا لَنَقْيٌ عَجَابٌ ﴿٥﴾ [ص: ٤-٥].

٤. متابعة الآباء والأجداد.

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ آثَمٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الزخرف: ٢٣].

ثانيًا: الجدل في الحق:

إن الإيمان الحقيقي بالله عز وجل يدفع المؤمن إلى التصديق بالحق الذي جاء عن الله عز وجل، ويستجيب له، يمثله بكل رضى وطواعية، لا يسأل عن علته، ولا يبحث في تفاصيله؛ لأنه صادر عن الله عز وجل^(١).

ولا ينبغي للمؤمن ألا الإسراع في مرضاة الله عز وجل، ومرضاة رسوله صلى الله عليه وسلم، فلا يجعل من أهواء نفسه وشهواتها حائلًا بينه وبين الالتزام بالحق والانقياد له، وعدم المجادلة فيه، أو التلكؤ في السير بناءً على دلالاته وتوجيهاته^(٢)، حتى يحفظ للأمة كيانه ومكائنها؛ فإن «الذي يفت في عضد المسلمين هو من يجادل في الحق بعدما تبين، ويصر على عدم الانقياد له، ويشير

الجدال بشبهات سقيمة»^(٣).

ونتناول في هذا المقام ثلاثة قضايا وقع فيها الجدل في الحق؛ سواء برفضه وجحوده، أو إظهار بعض مظاهر عدم القبول به؛ خوفًا من العواقب المترتبة عليه، أو المماطلة والتسويف في إنفاذه والالتزام به، وبيانها على النحو الآتي:

القضية الأولى: الجدل في آيات الله عز وجل.

إن صاحب كل فطرة سليمة يؤمن إيمانًا راسخًا بآيات الله عز وجل الدالة على قدرته ووحدانته سبحانه وتعالى، مسلم بها؛ لأن فطرة الوجود متعلقة بهذه الحقائق، متصلة بها، ولا يجادل في هذه الآيات بالطعن والتكذيب إلا الجاحدون لاستحقاقه سبحانه وتعالى العبادة وحده، الشاؤون عن الفطرة السليمة، المعرضون عن الحق الظاهر الواضح، المنكرون للحجج والبراهين الساطعة^(٤).

إن المتدبر للآيات المتعلقة بمجادلة أهل الباطل في آيات الله عز وجل، يظهر له الأسباب المؤدية بهم إلى الإنكار والجحود، ويمكن تلخيصها في الأسباب التالية:

١. الكفر بالله عز وجل، وجحود حججه

(٣) بدعة تقسيم الدين إلى قشر ولباب، محمد إسماعيل المقدم، ص ٥٩.

(٤) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٣٠٦٩، أيسر التفاسير، أسعد حومد، ص ١١٥٨.

(١) انظر: تفسير الشعراوي ١ / ٣٨٩.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٦٦٥.

ويضعف من جاههم وسلطانهم، لكنّ الحقيقة أنّ الله عز وجل مقابل كبرهم وتعاليم سيذلهم ويخزيهم، وأنّ ما يسعون لتحقيقه من المكانة والرفعة لن يبلغوه بالكبر والتكذيب^(٢).

٣. الجبروت والعتو وظلم الخلق بالتسلط والفهر.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ كُفْرًا مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥].

٤. التكذيب بالقرآن الكريم، وبرسالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

إنّ التكذيب بالحق، وإنكار البرهان الواضح؛ يؤدي بالناس إلى الانسياق وراء أوهامهم وأباطيلهم، التي تدفعهم إلى إنكار الآيات البيّنة الدالة على وحدانية الله عز وجل وقدرته، دون علم أو حجة أو دليل؛ لانطماس بصائرهم، واستحواذ الشيطان عليهم^(٣).

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلْنَا بِهِ رَسُولَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٦٩-٧٠].

وقبل الانتقال إلى القضية التالية لابد من

(٢) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ١٠/ ٦٤٤٩-٦٤٥٠.

(٣) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ١٢/ ٣١١.

وبراهينه.

قال تعالى: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُوكَ قَلْبُهُمْ فِي الْإِلْدَادِ﴾ [غافر: ٤].

ولقد بيّن القرآن الكريم أنّ عاقبة هؤلاء الجاحدين الهلاك في الدنيا، والخسران المبين في الآخرة، فلا ينخدع النبي صلى الله عليه وسلم وأمتة من بعده بأحوال أهل الكفر والجحود، وما يحققونه في الدنيا من تجارة وكسب، وصحة وسلامة؛ فإنه نعيم زائل ولو بعد حين؛ يمتعون به قليلاً، ويعذبون به طويلاً^(١).

قال تعالى: ﴿لَا يَغْرُوكَ قَلْبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْإِلْدَادِ﴾ [آل عمران: ١٩٦-١٩٧].

٢. الكبر والتعالي على الحق.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ إِنْ فِي سُذُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مِمَّا هُمْ بِسَلْبِغِيَةٍ فَاسْتَوْدِعُوا بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٦].

إنّ الكبر من أعظم الآفات والرذائل التي تمنع صاحبها من اتباع الحق؛ حيث يعتقد المتكبرون أنّ اتباعهم للحق والانقياد إليه، ينقص من مكانتهم، ويذني من رفعتهم،

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ١٦٢، تيسير التفسير، إبراهيم القطان ٣/ ١٨١.

التأكيد على الأمور التالية:

الأول: إنَّ الجدل في آيات الله عز وجل لبيانها، ودعوة الناس للإيمان بها أمر مشروع.

يقول الزمخشري: «أما الجدل فيها لإيضاح ملتبسها وحلّ مشكلها، ومقادحة أهل العلم في استنباط معانيها ورد أهل الزيغ بها وعنّها، فأعظم جهاد في سبيل الله عز وجل»^(١).

الثاني: إنَّ جدال أهل الكفر والزيغ والجحود في آيات الله عز وجل أمرٌ متوقع لا عجب فيه ولا غرابة؛ لأنهم أتوا بأعظم من ذلك، وهو الشرك بالله عز وجل^(٢).

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَجْعَلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنْ يُضَرَّفُونَ ۖ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَمِمَّا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٦٩-٧٠].

الثالث: إنَّ المجادلين في آيات الله عز وجل مهما بلغوا من القوة والقهر والتسلط فإنهم لن يسلموا من عقاب الله عز وجل، فإنهم إذا صاروا إلى ربهم يوم القيامة بعد خروجهم من قبورهم، فليس لهم من ملجأ من عذاب الله عز وجل^(٣).

قال تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ الَّذِينَ يُجْعَلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَّخِصٍ﴾ [الشورى: ٣٥].

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [الحج: ٥١].

القضية الثانية: مجادلة الصحابة رضوان الله عليهم في شأن الخروج للقتال يوم بدر.

لما ندب النبي صلى الله عليه وسلم الصحابة الكرام رضوان الله عليهم إلى غير أبي سفيان رضي الله عنه وذلك قبل إسلامه، ونجا أبو سفيان رضي الله عنه بالعمير، ولزم القتال، ولم يكن مع المسلمين ما يستعدون به للقتال، أخذوا يجادلون النبي عز وجل في أمر القتال، وقالوا: لو أخبرتنا بالقتال لأخذنا أهبتنا من السلاح والعتاد^(٤).

قال تعالى: ﴿يَجْعَلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا بَيْنَ كَأَنَّمَا يَسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ [الأنفال: ٦].

وقد ضرب الله عز وجل لهم هذا المثل من الواقع الذي بين أيديهم، فقد تنازع الصحابة رضوان الله عليهم الغنائم بعد انتهاء المعركة، فأراد الله عز وجل أن يذكرهم بحالهم قبل المعركة، وما أرادوه وجادلوا النبي صلى الله عليه وسلم لتحقيقه، وما أراداه الله عز وجل لهم من

(١) الكشاف، الزمخشري ٤ / ١٥٤.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٤ / ٨٢.

(٣) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٧ / ١٩٧.

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧ / ٣٦٩.

عز وجل.

قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [البقرة: ٢١٦].

القضية الثالثة: تلوّك بني إسرائيل في تنفيذ أمر ذبح البقرة.

إنّ بني إسرائيل اختلفوا في أمر قتلهم، حتى وصلوا إلى الحرب والتقاتل، فتوجهوا إلى نبي الله موسى عليه السلام؛ ليفصل بينهم، فأمرهم أن يذبحوا بقرة.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبُحُوا بَقْرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [البقرة: ٦٧].

قصة الآية:

عن عبيدة السلماني قال: «كان في بني إسرائيل رجل عقيم أو عاقر، قال: فقتله ولية، ثم احتمله فألقاه في سبط غير سبطه، قال: فوقع بينهم فيه الشر حتى أخذوا السلاح، قال: فقال أولو النهي: أنقتلون وفيكم رسول الله؟ قال: فأتوا نبي الله، فقال: اذبحوا بقرة، فقالوا: أتتخذنا هزوا، قال: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾ قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَبِّكَ يَبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ ﴿٦٨﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَذَبِحُوهَا وَمَا كَادُوا يُفْعَلُونَ ﴿٦٩﴾﴾، قال: فضرب، فأخبرهم بقاتله،

النصر والظفر^(١).

قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَدْعُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلِيَؤَكِّرَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾﴾ [الأنفال: ٧-٨].

فالظاهر من الآيات أنّ المؤمنين جادلوا في أمرين:

١. الخروج للمعركة وقتال المشركين.
٢. المجادلة في قسمة الغنائم بعد انتهاء المعركة، وخاصة ممن قاتل من الشباب.

لكن الواجب على المؤمنين امتثال أمر الله عز وجل، وأمر نبيه صلى الله عليه وسلم في المنشط والمكروه، في العسر وفي اليسر؛ فإنّ فيه سعادة الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب: ٣٦].

كما بيّن لنا القرآن الكريم أنّ المؤمن يجب عليه أن يكل أموره إلى الله عز وجل، وآلا يسعى إلى جلب المنفعة بجهد؛ لأنّه لا يدري أين يكمن الخير، والأمر كله بيد الله

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٤٧٩-١٤٨٠.

قال: ولم تؤخذ البقرة إلا بوزنها ذهباً، قال: ولو أنهم أخذوا أدنى بقرة لأجزأت عنهم، فلم يورث قاتل بعد ذلك»^(١).

إن العبرة من أمر الله عز وجل بذبح البقرة؛ لأنها من جنس العجل الذي عبده؛ تهويئاً لشأن العجل الذي عبده، ومثله هذه الحيوانات لا تصلح للعبادة، وإنما للعمل والذبح^(٢).

إن المتأمل في هذه القصة ليرى حجم مماثلة بني إسرائيل في تنفيذ أمر الله عز وجل، وجدالهم لنبي الله موسى عليه السلام، ويظهر ذلك من وجوه:

١. سفههم وظنهم بنبيهم السوء عند سماعهم أمر ذبح البقرة.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَلَذَّبْنَا هُرُوجًا﴾ [البقرة: ٦٧].

وكان الواجب عليهم مقابلة الأمر بالانقياد والامتثال، ثم انتظار النتائج المترتبة على تنفيذ الأمر^(٣).

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ توبيخ للمخاطبين من بني إسرائيل؛ لأن أوائلهم نقضوا العهد والميثاق

(١) جامع البيان، الطبري ٢/ ١٨٣-١٨٤.

وانظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢٩٤/١.

(٢) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ١/ ١٦٤.

(٣) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ١/ ١٦٤.

الذي أخذه الله عز وجل عليهم، بالطاعة للأنبيا الذين يعيهم الله عز وجل، فيذكرهم بماضيهم المليء بالنقض والإخلاف^(٤).

٢. عدم الاستجابة والتنفيذ بعد إرشاد موسى عليه السلام لهم.

وبيان أن هذا الأمر ليس للعب أو الاستهزاء، قال تعالى: ﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧].

بل ذهبوا للسؤال عن وصف هذه البقرة؛ زيادة في التشديد على أنفسهم، وجعل الأمر أكثر صعوبة ومشقة^(٥).

قال تعالى: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِصٌ وَلَا يَكَرُّ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ [البقرة: ٦٨].

٣. الاستمرار في حال المجادلة، وعدم الامتثال لأمر الله عز وجل، والبحث عن مماثلة جديدة وعدم الاكتفاء بالوصف المبيّن.

فأخذوا في تغيير صيغة السؤال، وهو السؤال عن اللون بعد معرفة العمر، قال تعالى: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْثُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءٌ فَاقِعٌ لَوثُهَا تَسْرُ النَّظِيرِ﴾ [البقرة: ٦٩].

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢/ ١٨٢.

(٥) انظر: تفسير الشعراوي ١/ ٣٩٤-٣٩٥.

الطبري رحمه الله تعالى وهو جواز الجمع بين القول الأول والثاني؛ فيكون المحرض على المجادلة شياطين الإنس أو شياطين الجن أو كلاهما معاً، بل هو الأغلب في التأويل^(٣).

فقد أخبر الله عز وجل عنهما بقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

أما القول الثالث وهو أن المقصود اليهود، فمنقوض من ثلاثة وجوه:

• أن اليهود لا يقولون بإباحة أكل الميتة حتى يجادلوا في حل أكلها.

• أن الآية مكية، ولم يتم التطرق إلى أهل الكتاب إلا في القرآن المدني.

• أن الحديث بهذه الطريق حديث معلول لا يقوى على الاحتجاج^(٤).

الصورة الثانية: افتراء التشريعات على الله عز وجل.

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائِهِمْ لِيُرْدُوهُمْ وَيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ ﴿٣٧﴾ وَقَالُوا

وقد حذرنا الله عز وجل من التجاوب معهم أو طاعتهم؛ لأنها تقضي بنا إلى الكفر بعد الإيمان.

قال تعالى: ﴿وَإِن أٰطَعْتُمُوهُم لَإِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١].

وقد تباينت أقوال المفسرين في المحرض على المجادلة والمزين لها على ثلاثة أقوال:

الأول: مردة الإنس من مجوس فارس الموالين لقريش في حربهم ضد النبي صلى الله عليه وسلم.

الثاني: إبليس وجنوده؛ إماماً بالإلهام والوسوسة، أو على السنة الكهان.

الثالث: اليهود^(١)؛ فعن سعيد بن جبير رحمه الله تعالى قال: «خاصمت اليهود النبي صلى الله عليه وسلم، فقالوا: أأأكل مما قتلنا، ولا تأكل مما قتل الله عز وجل؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ أَسْمُهُ لَللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾»^(٢).

والراجع في المسألة ما ذهب إليه الإمام

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٢ / ٤٠٠ - ٤٠١، مفاتيح الغيب، الرازي ١٣ / ١٣٩.

(٢) أخرجه الضياء المقدسي في المختارة، ١٠ / ٢٥٦، رقم ٢٦٩.

قال المحقق عن الحديث: «رجاله موثوقون لكنّه معلول، فيه عمران بن عيينة... صدوق له أوهام، وعطاء بن السائب: صدوق اختلط، وعمران بن عيينة لم يذكره الأئمة فيمن روى عن عطاء بن السائب قبل الاختلاط».

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢ / ٨٢ - ٨٣.

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣ / ٣٢٨.

الناس، في ثلاثة أصناف: شياطين الإنس والجن، وأئمة الكفر والفساد.

قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١].

ورجال الدّين من الرهبان والأخبار ومن سلك طريقهم من أدياء العلم من المسلمين.

قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَعْبَادَهُمْ وَرَهْبَنَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١].

رابعاً: الجدال بالباطل:

يسعى أهل الباطل على اختلاف ألوانهم ومعتقداتهم وأفكارهم في كل زمان ومكان، إلى مدافعة الحق وردّه وتعطيله؛ فنجدهم يتحزبون ضد أهل الحق ويتوحدون لحربهم، مستخدمين كل الحيل والأساليب الخبيثة (٢).

قال تعالى: ﴿وَمَا تُرْسِلَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أَنْذَرُوا هُزُوًا﴾ [الكهف: ٥٦].

إنّ مهمة الرسل عليهم السلام البشارة لأهل الإيمان بالجنة والغفران، والندارة لأهل الكفر بالجحيم والنيران، لكنّ أهل

هذِهِ أُنْعَمَ وَحَرَّتْ جِجَرَ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَأَ بِرِغْيِهِمْ وَأُنْعَمَ حُرِمَتْ ظُهُورُهَا وَأُنْعَمَ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لَذِكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَيْنَ أَرْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ [الأنعام: ١٣٧-١٤٠].

إنّ الآيات السابقة أشارت إلى تشريعات جاهلية قد ضيقت على الناس حياتهم في مجالات ثلاثة:

١. التضيق على الناس في أولادهم، وحملهم على قتلهم خشية العار أو الفقر.
٢. التضيق على الناس في التصرف ببعض أموالهم؛ وجعله في مصارف دون أخرى.
٣. التضيق على أنفسهم في تقسيم المطعومات بين الرجال والنساء (١).

إنّ المتأمل في الصورتين السابقتين يستطيع أن يحصر المحرضين على مخالفة الشريعة، والساعين لتشويهاها في قلوب

(٢) انظر: تفسير الشعراوي ١٤ / ٨٩٤٢، التفسير الواضح، محمد حجازي ٣ / ٢٩١.

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨ / ١٠٥ - ١١٠.

الباطل يسعون لصرفهم عن هذه المهمة؛ بأن يجادلوهم بالباطل؛ ليطلوا الحق الذي جاءوا به، ويزيلوه^(١).

والمأمل للآية يرى استخدام القرآن الكريم فعل المضارعة ﴿وَيُجَادِلُ﴾ للدلالة على تجذّر طبع المجادلة في أهل الكفر والضلال، وتكرار وقوعها منهم، لا يبتغون الاقتناع أو الحق، أو الاسترشاد والهداية، بل يبتغون السخرية والاستهزاء بالحق وأهله^(٢)، ولئن يحققوا غايتهم الخبيثة.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُمَارِعُونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُمْ جَحْتُهُمْ دَاخِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ﴾^(٣) [الشورى: ١٦].

وإن المتأمل لآيات القرآن الكريم يستنبط أسباب الجدال بالباطل، والتي منها:

١. الإعراض عن الحق، وعدم التدبر فيه. قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَكَرَ بَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ [الكهف: ٥٧].

وقد توعد الله عز وجل المعرضين بالمعيشة الضنك.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨ / ٥٠.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٥ / ٣٥٣، في ظلال القرآن، سيد قطب ٤ / ٢٢٧٥-٢٢٧٦، أيسر التفاسير، أسعد حومد، ص ٧١٥.

﴿١٣﴾ [طه: ١٢٤].

٢. الاستهزاء بالحق.

قال تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِإِلَهِهِ وَإِنِّي بِهِ رَسُولِي كُنْتُمْ تُسْتَهْزَؤُنَّ﴾^(١) [التوبة: ٦٥].

٣. عدم التفكير في عواقب أفعالهم وأقوالهم المخالفة لشرع الله عز وجل. قال تعالى: ﴿وَسَيَ مَا قَدَمْت يَدَا﴾ [الكهف: ٥٧].

لكن الله عز وجل يحصي كل شيء عليهم.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنْتِهِمُ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾^(٢) [المجادلة: ٦].

٤. استحواذ الشيطان عليهم استحواذاً تاماً. قال تعالى: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾^(٣) [المجادلة: ١٩].

ويمكن تلخيص مظاهر الجدال بالباطل في المثاليين الآتين:

الأول: الجدال في عيسى عليه السلام. إن أعداء الإسلام لا يزالون يتربصون بأهل الحق الدوائر؛ فنجدهم يحرصون على تصيد أي موقف أو كلمة؛ ليتخذوا منها سبيلاً للطعن في الإسلام وأحكامه وشرائعه، وإظهار اختلافه وتناقضه.

ورب هذه البنية (يعني الكعبة) ألسنت تزعم أن الملائكة عباد صالحون وأن عيسى عليه السلام عبد صالح وأن عزيزاً عليه السلام عبد صالح؟ قال: (بلى)، قال: فهذه بنو مليح يعبدون الملائكة، وهذه النصارى يعبدون عيسى عليه السلام، وهذه اليهود يعبدون عزيزاً عليه السلام، قال: فصاح أهل مكة، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ [الأنبياء: ١٠١] الملائكة وعيسى وعزيز عليهم السلام ﴿أُولَٰئِكَ عَنَّا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١] (٢).

فالحديث السابق يشير إلى منهج أهل الكفر والضلال والفساد القائم على المشاغبة والتشكيك؛ لعلهم يحققوا شيئاً مما يبتغون، لكن الأمر أبعد مما يتصورون؛ لأن الله عز وجل كاشف زيفهم، ومظهر خبيثهم وفسادهم.

الثاني: الجدال في متشابه القرآن الكريم لإثارة الفتنة، والتشكيك في القرآن الكريم. إن أهل الزيغ والضلال والجدال بالباطل يتعلقون بالآيات المتشابهة في القرآن الكريم، ويعكفون على الخوض فيها؛ لتشكيك المؤمنين في كتابهم، ومعتقداتهم، وإثارة

ف نجد مشركي مكة لما نزل قول الله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبٌ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَرِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]. عارضوا النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا: إن كان المعبود وعابده في النار، فإن عيسى عليه السلام، وعزيزاً عليه السلام، والملائكة سيكونون في النار مثلاً لأصنامهم (١).

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنهُ يَصِدُونَ﴾ [٧] وَقَالُوا يَا إِلَهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٧-٥٨].

ففي الحديث عن ابن عباس رضي الله عنه قال: «لما نزلت: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبٌ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَرِدُونَ﴾﴾ شق على قريش، فقالوا: أيشتم آلهتنا؟ ف جاء ابن الزبيرى فقال: ما لكم؟ قالوا يشتم آلهتنا، قال: فما قال؟ قالوا: قال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبٌ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَرِدُونَ﴾، قال: ادعوه لي، فلما دعي النبي صلى الله عليه وسلم قال: يا محمد، هذا شيء لآلهتنا خاصة، أو لكل من عبد من دون الله عز وجل؟ قال: (لا، بل لكل من عبد من دون الله عز وجل)، فقال ابن الزبيرى: خصمت

(٢) أخرجه الطحاوي في شرح مشكل الآثار، رقم ١٦/٣، ١٩٦.

قال المحقق: «إسناده حسن».

وانظر: أسباب النزول، الواحدى، ص ٣٠٥.

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣١٩٧-٣١٩٦.

٢. تأويل آيات القرآن الكريم تأويلاً باطلاً، يتفق مع أهوائهم وشهواتهم وغايتهم الخبيثة^(٣).

خامساً: الجدل عن الخائنين:

لقد نهى الإسلام عن المدافعة عن المنافقين ومرتكبي المعاصي المصيرين عليها؛ سواء بدفع ما ثبت بحقه من الخيانة، أو بدفع ما يترتب على أفعالهم من العقوبات الشرعية^(٤).

قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَانًا أَيْمًا﴾^(٥) [النساء: ١٠٧].

لقد وجهت الآيات المؤمنين ألا يقفوا من الخائنين وأصحاب التهم والجرائم موقف الدفاع؛ القائم على المجادلة عنهم، والتماس المعاذير لهم؛ ابتغاء نفي العقوبة، أو التخفيف منها؛ لأن ذلك اعتداء على حق الله عز وجل، وتعطيلاً لحدوده^(٥).

«فمن الشرف للإسلام أن يعاقب أي إنسان ارتكب خطأ؛ لأنه مادام قد انتسب للإسلام فعليه أن يصون هذا الانتساب»^(٦).

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ

الفتنة بين المسلمين^(١)، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْوَسْوَءِ وَالْبَغْيِ تَأْوِيلَهُ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾^(٧) [آل عمران: ٧].

وقد ذم النبي صلى الله عليه وسلم هذه الطائفة من الناس، ففي الحديث الصحيح عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ...﴾ الآية، قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سُمي الله عز وجل، فاحذروهم)^(٢).

ويهدف أهل الزيغ والضلال من الجدل بالباطل بتتبع المتشابه من القرآن الكريم إلى تحقيق أمرين:

١. فتنة المؤمنين في دينهم، وتشكيكهم في عقيدتهم، وإثارة الريب في قلوبهم.

(١) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٢ / ٣٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن الكريم، تفسير سورة آل عمران، باب (منه آيات محكمات) رقم ٤٥٤٧، ٦ / ٣٣، ومسلم في صحيحه، كتاب العلم، باب النهي عن اتباع متشابه القرآن الكريم والتحذير من متبعيه والنهي عن الاختلاف في القرآن الكريم رقم ٢٦٦٥، ٣ / ١٠٥٠.

(٣) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٢ / ٣٠.

(٤) انظر: تفسير القرآن الكريم الرحمن، السعدي، ص ٢٠٠.

(٥) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٣: ٨٩١.

(٦) تفسير الشعراوي، ٥ / ٢٦٠٧.

بِالْحَقِّ لِنَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرْتِكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ
لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا ﴿١٥﴾ وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ إِنَّ
اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٦﴾ [النساء: ١٠٥-١٠٦]

ونود التأكيد في هذه القضية على أن نهي القرآن الكريم عن المجادلة عن الخائنين لا يعني الوقوف ضدهم، وحرمانهم من حقوقهم، وتتبع أخطائهم؛ لإنزال العقوبات المختلفة بهم، فيجب على المسلم أن يكون عدلاً في موافقه؛ بغض النظر عن حقيقة الأشخاص، سواء أكانوا من جماعته وحزبه، أو غير ذلك، بل لا بد من الوقوف بجانب الحق، وتعرية الباطل وأهله، فضلاً عن الدفاع أو السكوت عنهم.

قال تعالى: ﴿يَتَأَيُّبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوْمِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلٰٓى اَلَّا تَعْدِلُوْٓا اَعْدِلُوْٓا هُوَ اَقْرَبُ لِلتَّقْوٰى وَاَتَّقُوا اللّٰهَ اِنَّ اللّٰهَ خَبِيْرٌۢ بِمَا تَعْمَلُوْنَ ﴿٨﴾ [المائدة: ٨].

وإن المتأمل للآية القرآنية يستنبط أن الخيانة طبع متجذر فيهم، نتج عنها حالان قبيحان يمتنعان من الدفاع عن أهل النفاق والفساد، وهما:

الأول: الحياء من الناس، مع الحرص الشديد على التستر من الناس عند الوقوع في المنكرات، وعدم الحياء من الله عز وجل، وإغفال مراقبة الله عز وجل، مع أن الله عز وجل هو الأولى أن يستحي منه.

بِالْحَقِّ لِنَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرْتِكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ
لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا ﴿١٥﴾ [النساء: ١٠٥].

ولذلك حرم الإسلام الدفاع عمّن علم شره وفساده، وظهر فسقه ونفاقه^(١).

وهنا تحذير في زماننا لمن امتهن المحاماة أن يتقي الله عز وجل في اختيار قضاياه، وألا يدافع عن شخص ظهر إجرامه وفساده، وأن يبحث عن المظلومين؛ ليرفع الظلم عنهم، ويرد إليهم حقوقهم.

وليعلم أنه إن نجحت المدافعة عن أهل النفاق والفساد في الدنيا؛ من تبرأتهم ودفع السوء عنهم، فإن ذلك لن يغيّر شيئاً من حقيقتهم الخبيثة، أو يخفف عنهم شيئاً من عذاب يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿هَتَانِئْتَهُ هَٰؤُلَاءِ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَدِلُ اللّٰهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ اَمْ مَنْ يَكُوْنُ عَلَيْهِمْ وَكِيْلًا ﴿١٩﴾ [النساء: ١٠٩].

وفي هذا المقام نقدم نصيحة لكل من يتولى مهنة القضاء أو المحاماة أن يحرص على دوام الاستغفار؛ خشية أن يكون قد برأ مجرمًا، أو جرّم بريئًا، لتوجيهه لنيبه صلى الله عليه وسلم والأمة من بعده إلى هذا الفعل.

قال تعالى: ﴿اِنَّا اَرْسَلْنَا اِلَيْكَ الْكِتٰبَ

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣٧٧/٥.

قال تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٨].

الثاني: إضمار الشر والتدبير لمخالفة شرع الله عز وجل قولاً وفعلاً، ثم العمل على إصاق التهمة بغيرهم من المسلمين^(١).

قال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ [النساء: ١٠٨].

سادساً: الجدل عمن استحق العذاب:

إنّ الإنسان بطبعه يسعى لتحقيق المصلحة ودفع المفسدة عمن تربطه بهم قرابة، أو مودة؛ لذلك فهو يسلك كل السبل ليحصل على مراده؛ سواء كانت هذه المجادلة بقصد الإصلاح أو الإفساد، وستناول المطلب موقفين يشيران إلى ذلك؛ وهما كالتالي:

الموقف الأول: نبي الله إبراهيم عليه السلام يجادل في قوم لوط.

لقد أثبت القرآن الكريم أنّ نبي الله إبراهيم عليه السلام لما جاءته الملائكة تبشّره بإسحاق عليه السلام، وتعلمه بأمر إهلاك قوم نبي الله لوط عليه السلام، أخذ يجادلهم في أمر نزول العقاب بهم، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبَشْرَىٰ مُجْدِلَاتًا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٤].

فهنا نبي الله إبراهيم عليه السلام يجادل ليدفع العقاب عن قوم لوط عليه السلام.

إنّ الجدل في أمر الله عز وجل بقصد ردّه وعدم الالتزام به من أعظم الذنوب والمعاصي؛ لأنها اعتداء على حكم الله عز وجل، وجرأة عليه، لكنّ مجادلة نبي الله إبراهيم عليه السلام لا تندرج تحت هذا المفهوم؛ إذ القصد منها سعي نبي الله إبراهيم عليه السلام إلى تأخير العقوبة عن قوم لوط وليس رفضاً لأمر الله عز وجل، لذلك نجد أنّ الله عز وجل قد امتدحه بعد مجادلته^(٢) بقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ [هود: ٧٥].

فإنّ نبي الله إبراهيم عليه السلام حلِيمٌ لا يستعجل العقوبة، صبورٌ على الأذى، أوّاه^(٣) رقيق القلب لا يحتمل ألم الناس؛ لذلك طلب من الله عز وجل تأجيل العذاب المقرر على قوم لوط عليه السلام؛ لعلهم يؤمنون قبل أن يحل بهم العذاب العظيم الأليم؛ بسبب جهلهم وعنادهم^(٤).

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٨ / ٣٧٧.
(٣) الأوّاه: كثير التآؤه، وهو من قولهم أوّه، وهو ناتج عن شدة الخشية من الله عز وجل، أو عن كثرة عناية الشخص بأحوال الناس وهمومهم، والتألم لآلامهم.
انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢ / ١٢٣، التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ٧ / ٢٤٣.

(٤) انظر: تفسير الشعراوي ١١ / ٦٥٧٠.

(١) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٣ / ٣٠٠.

لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ؛ لذلك نهى الله عز وجل نبيه نوح عليه السلام أن يسأله عن أسباب أفعاله التي غابت عنه وعن غيره من البشر ﴿فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾، وفي نهاية المحاوراة يتوجه نبي الله نوح عليه السلام إلى الله عز وجل بالإجابة والتوبة في أن يسأل فيما لا يدركه علمه، واستأثر الله عز وجل بعلمه ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَشْتَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾، وطلب من الله عز وجل المغفرة والرحمة والإنقاذ من غضبه وإلا كان من الخاسرين ^(٢) ﴿وَالَا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

إن هذا الموقف يرسخ حقيقة قرآنية تميّز طبيعة هذا الدين، مفادها أنّ روابط الدين أقوى وأثبت من روابط الدم والنسب، أو روابط الأرض والوطن، أو روابط اللون واللغة؛ لأنّ هذه الروابط في لحظة تنتهي بانتهاء المصالح المشتركة والمكاسب الدنيوية، فالقرآن الكريم يوجّه الأمة نحو التربية على هذا الأصل الكبير، والمعلم البارز في حياة الأمة، ألا وهو الرابط الذي يمثل وحدة العقيدة والمنهج ^(٣).

ونظير ذلك قوله تعالى في مخاطبة نبيه إبراهيم عليه السلام لما طلب لذريته الإمامة

الموقف الثاني: جدال نبي الله نوح عليه السلام في شأن ابنه.

لقد توجه نبي الله نوح عليه السلام إلى الله عز وجل طالباً منه أن يغفر لولده في الآخرة، بعدما يأس من نجاته في الدنيا، توجه اقتضاه داعي شفقة الأبوة على الولد، تلك الأبوة المتقدمة التي لا تنطفئ مهما صدر عن الأبناء من عقوق ومخالفة؛ لعله ينفع ابنه في الآخرة، ويدفع عنه العذاب الأليم ^(١).

قال تعالى: ﴿وَأَدَّيْتُ نُوْحًا رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ ^(٥٥) قَالَ يَنْتُوْحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ^(٥٦) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَشْتَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ^(٥٧) [هود: ٤٥-٤٧].

نادى نبي الله نوح عليه السلام ربه سبحانه وتعالى: ربّ قد وعدتني بنجاتي وأهلي من الغرق، وإنّ ابني من أهلي، ووعدك حق لا خلف له، وأنت أحكم الحاكمين، فاحكم لي بوفاء الوعد ونجاة ابني وأهلي، لكنّ ابن نوح عليه السلام ليس من أهله؛ لأنّه على دين يخالف عقيدة التوحيد، فهو ليس ممن وعد الله عز وجل بنجاتهم ﴿قَالَ يَنْتُوْحُ إِنَّهُ

(٢) انظر: جامع البيان ١٥ / ٣٣٩-٣٥٢.

(٣) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤ / ٢٢٦.

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢ / ٨٣، التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ٦ / ١١٤٦.

من بعده ﴿ وَإِذْ أَبْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبَّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٣٧﴾ [البقرة: ١٢٤].

سابعاً: الجدل في الحج:

إن زيارة بيت الله الحرام، والتقرب بعبادة الحج لله عز وجل، تقتضي من الإنسان ألا يقدم على أمر يندس قصده، ويبطل عمله (١). قال تعالى: ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا سَوْقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَلْمَهُهُ اللَّهُ وَكَرَّوْذُوا فَلَيْتَ خَيْرَ لِّزَادِ النَّقْوَىٰ وَأَتَّقُوا يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ ﴿١٣٧﴾ [البقرة: ١٩٧].

فمنع الإسلام الجدل في الحج؛ فأمر الحجيج بالابتعاد عن كل فعل أو قول يخالف آداب الإسلام، ويؤدي إلى التنازع والتخاصم بين المسلمين؛ لأن الجميع قد قصد مكة من أجل الطاعة والأجر، فالواجب عليهم التعاون على البر والتقوى، واجتناب الإثم والعدوان (٢).

ولما كان القصد من الحج هو إظهار وحدة المسلمين؛ وحدة الكلمة والمنهج والغاية، وإظهار قوة الأخوة في الدين، وصفاء الترابط بين الحجيج، أمر الله عز وجل باجتناح كل ما يخدش هذه الوحدة،

(١) روح المعاني، الألويسي ٢ / ٨٦.

(٢) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ١ / ٤٢٨.

ويعكر صفو هذا التألف، وعلى رأس هذه المنهيات الجدل والمنازعة.

بعد استعراض هذا المبحث يمكن الخروج بجملته من الاستنباطات من أهمها:

١. الجدل المذموم أغلبه متعلق بأهل الكفر والضلال، وقد يقع من المسلمين.

٢. يسعى أهل الكفر والضلال لمحاربة الإسلام بشتى الوسائل والأساليب دون توقف أو فتور، لكنّها بلا فائدة.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ [الأنفال: ٣٦].

٣. الخير كل الخير في الاستجابة لأمر الله عز وجل، وأمر نبيه صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ [الأنفال: ٢٤].

٤. «الإنسان وبخاصة الكافر كثير الجدل والمجادلة؛ لطمس معالم الحق، والإبقاء على ما ارتضاه لنفسه من اتباع الأهواء، وتقليد الأسلاف والآباء، واحتضان الكفر، والاحتفاظ بالزعامة

منافع الجدال ومضاره في القرآن

خلق الله عز وجل الإنسان وجعل الجدل من طبيعته، قال تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤].

وهذا نابع من طبيعته الاجتماعية؛ القائمة على مخالطة الناس على اختلاف توجهاتهم وأفكارهم وميولهم المختلفة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود: ١١٨].

فكان من لوازم الاختلاف المعارضة والمجادلة، استعملها المؤمنون لنصرة الحق ودفع الباطل وأهله، واتخذها أهل الضلال والفساد سبيلاً للحرب على الإسلام وتشويهه والتشكيك فيه^(٢).

وستتناول في هذا المبحث منافع الجدال ومضاره في القرآن الكريم، بناءً على هدف المتعاملين به.

أولاً: منافع الجدال المحمود في القرآن الكريم:

«إن الجدل والمناظرة ضرب من ضروب بيان الحق وتأييده، وقمع الباطل وتزهيقه، وقد استخدمه القرآن الكريم كثيراً، وعلى أساليب شتى، في حالات متنوعة؛ من تنبيه لغافل، أو إرشاد لمسترشد، أو إفحام لمعانده

(٢) انظر: أصول الجدل والمناظرة في الكتاب والسنة، حمد العثمان، ص ٥.

الدينيوية والمكاسب المادية»^(١).

٥. إن الطريق الوحيد لاستخلاص حقوقنا من اليهود هو الجهاد في سبيل الله عز وجل؛ لأنّ اليهود من طبعهم الخيانة والغدر والمماطلة والتسوية، فلا يحترمون عهداً ولا ميثاقاً مع المسلمين؛ لا اعتقادهم أنّ الله عز وجل قد أباح لهم أموال المسلمين ودماءهم، قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنَ إِنْ تَأَمَّنَتْ يَدَايُنَا لَأَبْرَأَنَّكَ إِلَيْنَا مَا نَدُمْتَ عَلَيْهِمْ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيْنِ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٥].

(١) التفسير المنير، الزحيلي ١٥ / ٢٨٤.

متلدد^(١).

والمتمامل لآيات القرآن الكريم يستنبط منها جملة من منافع الجدال، نلخصها في النقاط الآتية:

١. وسيلة ناجعة في مواجهة أهل الكفر والضلال.

إنَّ أهل الفساد والضلال يسعون لمعارضة أهل الإيمان ودفع الحق بكل وسيلة وفي كل باب، فكان الواجب على المؤمنين التصدي لفسادهم، ورد شبهاتهم وطعونهم، وإتيانهم بالحق الصادق الذي يزهق باطلهم، على أقوى برهان، وأحسن بيان^(٢)، وفقاً لمنهج القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴿٣٣﴾ وَلَا يَأْتُوكَ بِمِثْلِهِ إِلَّا جُنْتَاكَ وَالْحَقُّ وَآحْسَنُ تَقْسِيماً ﴿٣٤﴾﴾ [الفرقان: ٣٢-٣٣].

وقد أشار شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله إلى هذا المعنى فقال: «فالصحابة كانوا يعلمون ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، وفيما جاء به بيان الحججة على بطلان كفر كل كافر، وبيان ذلك بقياس صحيح أحق وأحسن بياناً من مقاييس أولئك الكفار، كما

(١) منهج الجدال والمناظرة في تقرير مسائل الاعتقاد، عثمان علي حسن ٨/ ٨.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٥٨٢، التفسير الوسيط، طنطاوي ١٠/ ١٩٤.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُوكَ بِمِثْلِهِ إِلَّا جُنْتَاكَ بِالْحَقِّ وَآحْسَنُ تَقْسِيماً ﴿٣٣﴾﴾ [الفرقان: ٣٣].

أخبر سبحانه أن الكفار لا يأتونه بقياس عقلي لباطلهم إلا جاءه الله عز وجل بالحق، وجاءه من البيان والدليل وضرب المثل بما هو أحسن تفسيراً وكشفاً وإيضاحاً للحق من قياسهم^(٣).

٢. إقامة الحججة على الناس.

لقد اقتضت حكمة الله عز وجل وتدبيره ألا يعذب قومًا إلا بعد أن يبين لهم الحق من الضلال، قال تعالى: ﴿مَنْ أَهْتَدَىٰ فَأِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا نُزِرَ وَأُزِرَ وَزُرَّ أَخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء: ١٥].

ومن مهمة الرسل عليهم السلام إيضاح أوامر الله عز وجل ونواهيه للناس؛ ومن أهم وسائل الأنبياء عليهم السلام في إقامة الحججة على الناس الجدال، قال تعالى: ﴿وَمَا نُزِيلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ﴿٥٦﴾﴾ [الكهف: ٥٦].

حتى لا يبقى لمعتذر عذر؛ فالجزاء لا يقع إلا على من بلغته الدعوة على الوجه

الصحيح، قال تعالى: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ

(٣) نقض المنطق، ابن تيمية، ص ٨٩.

العناد والمكابرة فقلبه خاضع لها ذليل مهطور تحت سلطانها، بل سلطان الجاه إن لم يكن معه علم يساس به، فهو بمنزلة سلطان السباع والأسود ونحوها، قدرة بلا علم ولا رحمة، بخلاف سلطان الحجة فإنه قدرة بعلم ورحمة وحكمة، ومن لم يكن له اقتدار في علمه فهو إما لضعف حجته وسلطانه، وإما لقهر سلطان اليد والسيف له، وإلا فالحجة ناصرة نفسها، ظاهرة على الباطل، قاهرة له»^(٢).

٤. تحقيق مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

إن من أهم مقتضيات الإيمان، وواجبات المؤمن الحق، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

بل إن تحقيق صفة الخيرية للأمة، وبناء أركانها على الخير والفضيلة، منوط بإقامة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بين الناس؛ لأنهما السياج الحامي للدين^(٣)، وميزان النقاء والصفاء للمجتمع من الرذيلة والفساد.

إن تحقيق فضيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مقرونة بالدعوة إلى الله عز

الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ غَرِيبًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ [النساء: ١٦٥].

وحتى لا يدعي أهل الكفر والإجرام أنهم ما خالفوا أمر الله عز وجل إلا لجهلهم^(١)، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَنْ نَّذَلَ وَنُخْزَىٰ﴾ [طه: ١٣٤].

٣. يكسب المؤمن قوة الحجة وسلطة العلم في مواجهة أهل الباطل.

عدّ الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله سلطة علم الحجّة على الناس في مقام السلطة القاهرة بل أعظم، مشيرًا إلى قوله تعالى: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحٰنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ إِنَّ عِنْدَكُمْ مِّن سُلٰطٰنٍ بَيِّنٰتٍ إِن تَقُولُونَ عَلَىٰ اللَّهِ مَالًا تَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٦٨].

فيقول: «والمقصود أنّ الله سبحانه سمي علم الحجّة سلطانًا؛ لأنها توجب تسلط صاحبها واقتداره، فله بها سلطان على الجاهلين، بل سلطان العلم أعظم من سلطان اليد؛ ولهذا ينقاد الناس للحجة مالا يتقادون لليد؛ فإن الحجّة تنقاد لها القلوب، وأما اليد فإنّما ينقاد لها البدن، فالحجة تأسر القلب وتقوده وتذل المخالف، وإن أظهر

(٢) مفتاح دار السعادة، ابن القيم ١ / ١٦٠.
(٣) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٢ / ٢١٤.

(١) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ٦ / ٥٩، أيسر التفاسير، أسعد حومد، ص ٢٥٦.

وجل القائمة على الحكمة والجدال بالتي هي أحسن، قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَحَدِّ لَّهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

٥. علو مكانة من أحاط بالحجة والدليل؛ لنصرة الإسلام وأهله.

«قد أثنى الله عز وجل في كتابه العزيز على إبراهيم عليه السلام؛ لأخذه بمجامع الحجة، ولقطعه للكافرين الضالين، بل وأضاف الله عز وجل الحجة التي آتاها إبراهيم عليه السلام لنفسه؛ تعظيماً لشأنها، وحثاً على تحصيلها»^(١).

قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٨٣].

«لقد أعطى الله عز وجل إبراهيم عليه السلام الحجة على قومه، أي كانت له عليهم درجات وسمو وارتفاع؛ لأن إقامة الحجة على الغير انتصار، والانتصار رفع لدرجة موضوعك، ورفع أيضاً لموضوع عملك»^(٢).

إن ما يحوزه الإنسان من علم نظري فضيلة ومنقبة، وأن يؤتى الحكمة العلمية والعملية درجة أكبر، وأن يرزق فصل

الخطاب وقوة المعارضة والحكم بالحق في محاجة أهل الباطل درجة أكبر وأعظم؛ وهذا التفاوت بفضل الله عز وجل؛ فكل شيء بيده، والأمر مرده إليه^(٣).

٦. التعاون على إظهار الحق، والوصول إلى الصواب.

يحرص أطراف الجدل على بيان أن غايتهم من الجدل إظهار الحق، والتزام الصواب، مؤكداً زعمهم بالأدلة والبراهين؛ فإن خلصت النيات في هذا المقام، وصدق الزعم؛ تعاون الجميع للوصول إليه، وإقامة الأدلة عليه، لا يضرهم على لسان أيهم ظهر، ملتزمين بتوجيهات القرآن الكريم للمؤمنين بالتعاون والسماحة في دعوة الناس لعبادة الله عز وجل وحده.

قال تعالى: ﴿قُلْ يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ تَمَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَّامٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَعُولُوا أَشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

٧. تثبيت أهل الإيمان والإسلام.

يقصد أهل الإيمان من جدالهم بيان الحق لأهل الضلال، والسعي إلى استجابتهم، فإذا لم تتحقق الاستجابة، تحقق من الجدل تثبيت قلوب المؤمنين واطمئنانهم على

(١) أصول الجدل والمناظرة في الكتاب والسنة،

حمد العثمان، ص ٤.

(٢) تفسير الشعراوي ١٣ / ٨٢٨٦.

(٣) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ٧ / ٤٨٥.

الإيمان وليس في كفيته؛ لأن حقيقة الإيمان تقوم على التصديق والجزم، وذلك لا يقبل الزيادة ولا النقصان^(٣)، وهذا نظير موقف نبي الله إبراهيم عليه السلام لما سأل الله عز وجل أن يريه كيفية إحياء الموتى، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أُولَٰئِكَ تُؤْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠].

٨. رد شبهات أعداء الإسلام، وإزهاق باطلهم.

يسعى أعداء الإسلام لإثارة الشكوك حول حقائق الإسلام ومبادئه؛ من خلال الطعن في القرآن الكريم وأحكامه وأخلاقه وطريقة إنزاله؛ بهدف صد المسلمين عن دينهم، وقد ذكر القرآن الكريم جملة من شبههم وردّ عليها بأفصح عبارة، وأبلغ بيان، ومن شبههم اعتراضهم على نزول القرآن الكريم مفرقاً^(٤).

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢].

وليعلم أهل الشبهات والضلالات «أن الحق إذا جحد وعورض بالشبهات، أقام الله عز وجل له مما يحق به الحق، ويبطل

صحة منهجهم، وصدق توجههم؛ من خلال ما يقدمه أهل الإيمان في المناظرة والجدال من الحجج والبراهين الدالة على علو منهج الإسلام وصدقه، وضعف حجج أهل الباطل ووهنها^(١).

قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَحْسَبَ النَّارِ إِلَّا الْمَلَائِكَةَ وَمَا جَعَلْنَا عَنْدَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَفِيقَ الَّذِينَ أُؤْتُوا الْكِتَابَ وَيَرْذُرَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَّا﴾ [المدثر: ٣١].

إن أعداء الإسلام يبدلون كل الجهود، ويسلكون كافة الطرق، ويتبعون جميع الوسائل؛ للصد عن سبيل الله عز وجل، وردّ المؤمنين عن دينهم.

قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

ولذلك فإن من واجب علماء المسلمين اليوم تثبيت عامة المسلمين، الذين يسعى الكفار لصدورهم عن منهج الإسلام وعقيدته؛ من خلال دحض حجج أعداء الإسلام، والغلبة عليهم في ميدان الجدال والمناظرة^(٢).

إنّ الزيادة في الإيمان زيادة في كمّ

(١) انظر: منهج الجدل والمناظرة في تقرير مسائل الاعتقاد، عثمان علي حسن ٤١/١.

(٢) انظر: الحوار مع أهل الكتاب، خالد القاسم، ص ١١٦-١١٧.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٩/ ٣١٦.

(٤) انظر: الحوار مع أهل الكتاب، خالد القاسم، ص ١١٥.

به الباطل من الآيات البيّنات؛ بما يظهره من أدلة الحق وبراهينه الواضحة، وفساد ما عارضه من الحجج الداحضة^(١).

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].

وفي مقام ردّ شبهات الخصوم المعادين للإسلام وأهله، ينبغي لمن يتولى الردّ عليهم، ويتصدى لبيان زيف باطلهم وكذب ادعائهم، أن يكون من الراسخين في العلم، أهل الحجّة والبيان، ورواد التعامل مع أهل الشبهات والشهوات؛ حتى لا يتمكن أهل الزيغ والضلال منهم، وتتقرر شبههم في قلوب عامة المسلمين مع ضعف حجة من يتصدى لهم من غير أهل الاختصاص^(٢).

٩. دعوة الناس لاتباع الحق والتزامه.

إنّ الهدف الرئيس والأسمى والأجل من مشروعية المجادلة هو دعوة الناس للإسلام، والالتزام به، وتطبيق أحكامه، والعمل على بيانه للناس، وتيسير فهمه عليهم، وإزالة اللبس والغموض الحاصل

(١) الجواب الصحيح، ابن تيمية ١/ ٨٥-٨٦.

(٢) انظر: الحوار مع أهل الكتاب، خالد القاسم، ص ١١٦.

عند الناس في فهم آياته.

وقد عدّ الإمام الفخر الرازي رحمه الله أنّ اعتبار الجدال المحمود يكون في تقريره الحق، ودعوة الناس إلى الإسلام، وإخراجهم من الظلمات إلى النور، والدفاع عن الدّين وأهله^(٣).

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [٤] وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكَرَهُمْ بِآيَاتِنَا إِنَّ اللَّهَ بَرٌّ فِي ذَلِكَ لَا يَنْتَظِرُ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: ٤-٥].

ثانياً: مضار الجدال المذموم في القرآن الكريم:

إنّ المتأمل في آيات القرآن الكريم يستطيع الخروج بجملته من مضار الجدال ومساوئه، نلخصها في النقاط التالية:

١. الحرمان من العلم والفهم.

إنّ أهل الجدال بالباطل يحرمون من نعمة الفهم الصحيح للعلم؛ حيث جعل الله عز وجل ثقلاً يمنعمهم من سماع الحق والانقياد إليه، والانتفاع بآياته وفقهها؛ لأنهم ذكروا بها فأعرضوا عنها، فكان الجزء من

(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٥/ ١٤٣.

فكان الجزاء من جنس العمل؛ فمقابل كفرهم وعنادهم كان جزاؤهم الطبع والختم والغشاوة ونحوها^(٢).

قال تعالى: ﴿فِيمَا نَقُضُهُمْ مَيَسَّقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بَيَّاتٍ اللَّهُ وَقَلْبُهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَتَّى وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٥٥].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَقُولُوا لِمَ تُوذُّونَنِي وَقَدْ تَعَلَّمْتُمْ آيَاتِي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: ٥].

٢. عدم الاستفادة من النصيح.

إن أصحاب المناهج الفاسدة لا يقصدون من جدالهم الوصول إلى الحق، وإنما يحرصون على المشاغبة والمعارضة؛ رفضاً للحق، وإصراراً منهم على الجحود والعناد؛ فإن نتيجة ذلك عدم حصول الفائدة لهم بالنصح والإرشاد، بل الزيادة في الرفض والإنكار، والابتعاد عن منهج أهل الحق والإيمان.

قال تعالى: ﴿قَالُوا يَنْتُوخُ قَدْ جَنَّاتْنَا فَأَكْثَرَتِ جِدَلْنَا فَأَيْنَمَا تَقْدُمْنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [٣٣] قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ [٣٣] وَلَا يَفْعَلُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ﴾ [هود: ٣٢-٣٤].

وهذا نابع من عدم فهمهم لطبيعة الدعوة

(٢) أضواء البيان، الشنقيطي، ٣/ ٣١١.

جنس العمل^(١).

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَكَرَ بَيَّاتٍ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاؤُهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ نَدَعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٥٧].

وقد وردت هذه الآية بعد الآية التي ذكرت جدال أهل الكفر رسلهم؛ لرد الحق، وتقرير الباطل.

قال تعالى: ﴿وَمَا تَرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيَجْعَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أَنْذَرْتَهُمْ هُزُوًا﴾ [الكهف: ٥٦].

وفي ذلك إشارة أن سبب الحرمان من العلم، وجعل الأكنة على القلوب، هو جدالهم رسلهم بالباطل.

وهنا قد تعرض عند البعض شبهة تقول: إذا كانت هذه الفئة قد منعوا السمع والبصر والفقهاء؛ لأن الله عز وجل جعل على قلوبهم أكنة، وعلى سمعهم وقراً، وعلى أبصارهم غشاوة، فما وجه تعذيبهم مع حدوث الصرفة لهم؟ الجواب: أن الله عز وجل بين في غير موضع من القرآن الكريم، أن حصول تلك الموانع كالتختم والطبع والغشاوة والأكنة، كانت جزاءً متناسباً لمبادرتهم بالكفر، وتكذيب الرسل عليهم السلام بإرادتهم،

(١) انظر: تفسير الشعراوي ١٤ / ٨٩٤٤.

والخير، والعمل على منع الناس من الوصول إليها؛ ليستمر الباطل، ويسود أهل الفساد^(١).

قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُذَّبًا يَوَدُّوا لَأَنْ يَكُونَ لَهُمْ مَخْرُجٌ كَمَا كَفَرُوا أَنْ يَدْعُوا بِهِمْ عَلٰى نَفْسِهِمْ فَكَانُوا لِئَلَّا يَصْطَفُوا الْبَاطِلَ عَلَيْهِمْ ذُنُوبًا مِمَّا كَفَرُوا إِنَّ هَٰذَا إِلَّا أَسْطِيزُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْهَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنعام: ٢٥-٢٦].

وقد أشار القرآن الكريم إلى الطريقتين السابقتين في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَكَانَ الْبَاطِلُ أَعْيُنًا عَلَى الْحَقِّ بِمَا يَكْفُرُ﴾ [البقرة: ٤٢].

ونظيره قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا الْآخِرَةَ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا مَا هَٰذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشْرًا مِثْلُكُمْ أَتُكْفَرُ بِهِ إِذَا لَخِيسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَعْبَدْتُمُ اللَّهَ وَإِنَّمَا تَرْضَوْنَ آبَاءَكُمْ وَإِنَّمَا تُرِيدُونَ أَنْ تَكُونَ مِثْلَهُمْ لَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٣٥﴾ هَيَاتَ هَيَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِن هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ لَمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [المؤمنون: ٣٢-٣٨].

٢. تشويش الدلائل، وتشويه الأدلة والبراهين الصادقة، التي أوصلها دعاة

إلى الله عز وجل، ومهمة دعاة الحق والخير؛ لذلك نجدهم يطلبون من الدعاة إلى الله عز وجل أشياء تدل على قصور إدراكهم، وضحالة أفكارهم، متغافلين أنّ مهمة هؤلاء الدعاة هو هداية الناس إلى طريق الحق، وإرشادهم إلى ما فيه سعادة الدنيا والآخرة، فقد حكى القرآن الكريم لنا مشهد مطالبة قوم نبي الله نوح عليه السلام منه طرد المؤمنين؛ ليستجيبوا لدعوته.

قال تعالى: ﴿وَيَقُولُوا لَا آتَاكُم بِهِ حَقٌّ وَمَا أَنتُمْ بِبَارِئِينَ مِنَ اللَّهِ وَإِن تُؤْمِنُوا إِلاَّ أَنْتُمْ مَلَافُوا رَبِّكُمْ وَلَٰكِن كَفَرْتُمْ فَمَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [هود: ٢٩-٣٠].

٣. العمل على ردّ الحق، وتزييف الحقائق.

يسعى أهل الزيغ والضلال، والجحود والإنكار من وراء جدالهم إلى ردّ الحق، وتزييف الحقائق؛ لإعلاء كلمة الباطل وأهله، وتحقيق المصالح الدنيوية الفانية.

قال تعالى: ﴿وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِنَا أَنْذِرًا وَهُمْ هٰرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الكهف: ٥٦].

طرق ردّ الحق، وإضلال الخلق:

١. إخفاء أدلة الحق، ومظاهر الحقيقة، عن الناس الذين لم تصلهم دعوة الحق

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣/ ٤٠-٤١، ٢١/ ١٢٠.

ولعل بعضكم أحن بحجته من بعض، فمن قضيت له بحق أخيه شيئاً بقوله فإنما أقطع له قطعة من النار فلا يأخذها^(١).
٤. رد الأدلة الصحيحة.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولُنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّا سَاءَ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الروم: ٥٨].

٤. خداع أهل الحق، واستمالة قلوبهم؛ لإسقاطهم في شرك أهل الزيف والفساد.

يتخذ أهل الضلال والفساد من المجادلة سبيلاً للوصول إلى قلوب بعض المسلمين؛ لاستمالتهم إلى منهجهم الفاسد، واستعمالهم كأداة للطعن في الإسلام وأهله، مستخدمين في ذلك شعارات عامة، يتغنى بها الداعون من بني جلدة المسلمين إلى التقارب مع المخالفين في الدين من النصراري واليهود؛ وهذه الشعارات من قبيل: سماحة الإسلام، لا إكراه في الدين، العدل والإنصاف، إلى غير ذلك من الشعارات التي يعتنى بظاهاها، دون إدراك جوهرها ومضمونها.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب من أقام البيعة بعد اليمين، رقم ٢٦٨٠، ٣/١٨٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الأقضية، باب الحكم بالظاهر واللحن بالحجة رقم ١٧١٣، ٢/٧١١.

الحق للناس؛ بسبب إلقاء الشبهات الصارفة للناس من اتباع الحق، أو السخرية من أهل الحق، والاستهزاء بهم.

ومنهج التشويش منهج قديم استخدمه مشركو مكة ضد النبي صلى الله عليه وسلم. قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا هَذَا الْقُرْآنَ وَالْقَوَا فِيهِ لَمَلَكٌ قَاتِلُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [فصلت: ٢٦].

٣. تزيين الباطل. حيث يسعى أهل الزيف والفساد إلى عرض فسادهم بصورة جميلة؛ ليقبل به الدهماء من الناس، ويصفق له أهل الغوغاء؛ استخفافاً بعقولهم، واستعباداً لأبدانهم، فقد قص علينا القرآن الكريم مشهد عرض فرعون باطله على قومه، وتزيينه لباطله.

قال تعالى: ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أَلَيْتِي عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الزخرف: ٥٤-٥١].

ونظيره الحديث الصحيح عن أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إنكم تختصمون إليّ

إن القرآن الكريم حذر النبي صلى الله عليه وسلم من التجاوب مع أهل الباطل، ومع اقتراحاتهم للتقارب، فقال تعالى: ﴿وَأَن أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ يَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَأَحْذَرُهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَيْدًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [المائدة: ٤٩].

كما بيّن القرآن الكريم حرص أهل الكفر على التقارب المفضي إلى التنازل عن مبادئ الإسلام، قال تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْرَهُنَّ فَيَذَرُوهُنَّ﴾ [القلم: ٩].

كما أشار القرآن الكريم إلى مكر أهل الكفر والضلال من سعيهم وراء المجادلة الناعمة؛ وكشف عن هدفهم الخبيث من الوصول إلى إخراج المسلمين من الإسلام. قال تعالى: ﴿وَقَالَتْ طَآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَأَمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَءَ النَّهَارِ وَكَفَرُوا ءآخِرُهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [آل عمران: ٧٢].

إن الآية السابقة تظهر مكر وخديعة أهل الكفر؛ فرسموا لهم تلك الحيلة الرخيصة؛ ليسقطوا أهل الحق في باب خلط الحق بالباطل؛ وذلك أن المؤمنين من العرب كانوا أميين، وكانوا يعلمون أن أهل الكتاب على علم بمناهج السماء، فاستغل أهل الكفر والضلال هذه المعطيات لخداع

المؤمنين^(١).

«إن سماحة الإسلام مع أهل الكتاب شيء، واتخاذهم أولياء شيء آخر، ولكنهما يختلطان على بعض المسلمين، الذين لم تتضح في نفوسهم الرؤية الكاملة لحقيقة هذا الدين ووظيفته، بوصفه حركة منهجية واقعية، تتجه إلى إنشاء واقع في الأرض، وفق التصور الإسلامي الذي يختلف في طبيعته عن سائر التصورات التي تعرفها البشرية... وهؤلاء الذين تختلط عليهم تلك الحقيقة ينقصهم الحس النقي بحقيقة العقيدة، كما ينقصهم الوعي الذكي لطبيعة المعركة، وطبيعة موقف أهل الكتاب فيها، ويغفلون عن التوجيهات القرآنية الواضحة الصريحة فيها، فيخلطون بين دعوة الإسلام إلى السماحة في معاملة أهل الكتاب والبر بهم في المجتمع المسلم الذي يعيشون فيه مكفولي الحقوق، وبين الولاء الذي لا يكون إلا لله عز وجل، ورسوله صلى الله عليه وسلم، وللجماعة المسلمة»^(٢).

يهدف أهل الكفر من أهل الكتاب من مجادلة الذين آمنوا، إلى تنصير المسلمين، وطمس حضارتهم، واستعمارهم؛ بما يضمن لهم استغلال ثروات المسلمين، وقيادتهم بما يحقق مصالح الكفار،

(١) انظر: تفسير الشعراوي ٣/ ١٥٣٨.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٩٠٩-٩١٠.

لنبي الله موسى عليه السلام؛ حيث اتجه فرعون إلى تصغير شأن نبي الله موسى عليه السلام بأحوال ليست مؤثرة، مظهرًا في الوقت نفسه مكانته (٢).

قال تعالى: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾ [الزخرف: ٥٢].

الثاني: تبرير أهل مكة رفضهم الاستجابة لدعوة النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنه يتيم، وليست له المكانة التي تؤهله لهذه المكانة، فقالوا تصغيرًا لشأن النبي صلى الله عليه وسلم، واستعظامًا أن يكرمه الله عز وجل بالوحي والرسالة، هلاً نزل القرآن على رجل عظيم من قريش (٣).

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَمْ هُوَ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَئِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الزخرف: ٣٠-٣٢].

الثالث: مشهد المجادلة بالسيف والسنان؛ فنجد أن صنابير قريش بعد إفلات عير أبي سفيان رضي الله عنه - وذلك قبل إسلامه - رفضوا العودة إلى مكة والاحتفال بنجاة أموالهم، بل أرادوا أكثر من ذلك؛ أرادوا الخروج بمظاهرة لنصرة الضلال

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥ / ٢٣١.

(٣) انظر: المنتخب في تفسير القرآن الكريم، لجنة من علماء الأزهر، ص ٧٢٦.

وإضعاف شوكة المسلمين (١).

قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتَصُوا وَأَصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ [البقرة: ١٠٩].

٥. الإعجاب بالنفس واحتقار الآخرين؛ بإظهار مزية النفس في العلم والفضل، ودم نقص المخالفين.

يهدف بعض المجادلين إلى إبراز مكانته العلمية، وقدرته على الإحاطة بقضية الجدل من جميع جوانبها، دون الالتفات إلى الحق، أو السعي لتقريره؛ فسعيه متوجه نحو إظهار مزية النفس، والعمل لا تحقير الآخرين.

ولقد حذرنا القرآن الكريم من ذلك، فقال تعالى: ﴿هُوَ أَهْلُكُمْ بِكُرْبٍ إِذْ تُنشَأُ مِنْ أَرْضٍ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴿٣٢﴾﴾ [النجم: ٣٢].

إن المتأمل في آيات القرآن الكريم ليجد مشاهد عدة على إعجاب المجادلين من أهل الكفر والضلال بأنفسهم، التي تدفعهم إلى رفض الحق، والتمسك بالباطل، ومن هذه المشاهد:

الأول: فرعون يتعالى بنفسه عند جداله

(١) انظر: الحوار مع أهل الكتاب، خالد القاسم، ص ١٣٤.

والانحلال، والمفاخرة والتكبر؛ ليشبوا للناس جميعاً أنهم أهل السيادة والمكانة، وأن غيرهم أهل الذلة والمهانة^(١).

قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِثَةَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ (٥٧) وَإِذْ زَيْنُّ لَّهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَاهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٧-٤٨].

الرابع: مشهد المجادلة بالمال والاستعلاء به؛ فيتوجه جملة من أهل الفساد والضلال إلى القول بصحة أفكارهم ومبادئهم؛ لأجل ما جمعه من المال، وأن ما حازوه من الفضل دليل على أنهم الأفضل عند الله عز وجل^(٢).

فهذا صاحب الجنتين يزعم أنه ملك خير الدنيا، وسيملك أفضل منه في الآخرة: ﴿وَكَانَ لَهُ نُمْرٌ فَقَالَ لِبَصِيحِهِ وَهُوَ يَحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفْرًا﴾ (٢١) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ (٢٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودَتْ إِلَيَّ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ (٣١) [الكهف: ٣٤-٣٦].

كما قص علينا القرآن الكريم مشهد قارون وجداله مع قومه.

قال تعالى: ﴿إِنْ قَرُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَءَانْتَهُ مِنَ الْكُفُورِ مَا إِنْ مَفَاتِحَهُ لَسَنُوا بِالْعَصْبَةِ أَوْلَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ (٦٦) وَأَسْبَغَ فِيمَا ءَاتَاكَ اللَّهُ الْدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (٧٧) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَنْ دُونِهِمْ الْمُحْرَمُونَ﴾ (٧٨) [القصص: ٧٦-٧٨].

كما أشارت الآيات القرآنية إلى أن هذا المنهج مترسخ في عقول أهل الفساد وقلوبهم.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ (٢١) وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ (٣٥) [سبأ: ٣٤-٣٥].

ثالثاً: الصفات الشخصية الذاتية للمجادل بالباطل:

إن المتدبر لآيات القرآن الكريم ليستخلص صفات أهل الجدل بالباطل، ويمكن حصرها في النقاط التالية:

١. قسوة القلب.

قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا

(١) انظر: تفسير الشعراوي / ٨ / ٤٧٣٠-٤٧٣١.

(٢) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي / ١١ / ٢٩٧.

نَضَّرَعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ [الأنعام: ٤٣].

٢. عمى القلب والبصيرة.

قال تعالى: ﴿وَعَادُوا وَتَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [العنكبوت: ٣٨].

٣. الترف في الحياة الدنيا.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا الْآخِرَةَ وَأَتَرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ بَلَىٰ كُلُّ مِمَّا تَكْتُمُونَ مِنْهُ وَنَشْرَبُ مِمَّا قَشَرْتُمْ ﴿٣٣﴾﴾ [المؤمنون: ٣٣].

٤. الكبر.

قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَرِهُوا اللَّهَ وَإِنَّهُمْ كَرِهُوا يَوْمِنَا بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [النحل: ٢٢-٢٣].

موضوعات ذات صلة:

الإعراض، الإنصاف، الحوار، الدعوة، النصيحة

